المعلم الأول
الجندي الصغير
لقاء مع الابن

ЧИНГИЗ АЙТМАТОВ

ПЕРВЫЙ УЧИТЕЛЬ

СОЛДАТЕНОК

СВИДАНИЕ С СЫНОМ

جنكيز أيتماتوف

المعلـــــم الأول
الجنـــدي الصـــغير
لقـــاء مـــع الابـــن

ترجمة

د. ماجد علاء الدين

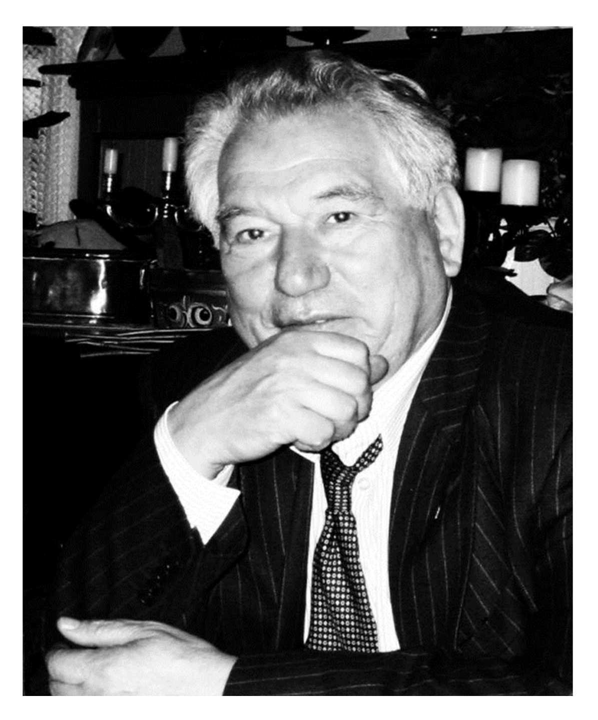
♦ **المعلم الأول / الجندي الصغير / لقاء مع الابن.**

- تأليف: **جنكيز أيتماتوف.**
- ترجمة: **د. ماجد علاء الدين.**
- الطبعة الأولى: 2018.
- الترقيم الدولي: **ISBN**: 978-9933-18-808-5

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين
للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5617071
فاكس: 00963 11 5613241
ص. ب: 30598
daraladdinsyria@gmail.com

دار مؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5627060
00963 11 5637060
فاكس: 00963 11 5632860
ص. ب: 259 جرمانا
darrislansyria@gmail.com



جنكيز أيتماتوف (1928 - 2008)

الفهرس

المعلم الأول

فتحت نوافذ الغرفة على وسعها، فانساب كم كبير من الهواء النقي إليها، ومن خلال الشفق اللازوردي الشفاف، أخذت أنظر بتمعن إلى الرسوم التحضيرية والتجارب للوحة التي أردت أن أرسمها بدقة، وكانت التجارب كثيرة، وفي كثير من المرات، كنت أعود إلى البدء من جديد، ولكن الحكم على اللوحة، بشكل كلي، كان أمراً مبكراً، ولم أجد حتى الوقت الحاضر، الشيء الرئيس... أذهب في الأسحار المبكرة، والهادئة، وأفكر، وأفكر، وأفكر، وهكذا في كل مرة، كنت أقتنع بأن لوحتي - ما زالت مجرد فكرة.

أما أنا، فلست من أنصار من يحبون الكلام مسبقاً، وقطع العهود والوعود من جانب الأصدقاء المقربين، بخصوص أمر لم يتوضح لديهم كلياً، وهذا ليس لأنني أغار جداً على عملي، - ببساطة، وكما أعتقد، فإنه من الصعب أن يحزر الإنسان، ماذا سينجم عن تطور هذا الطفل البريء، وهو ما زال في مهد الرضاعة المبكرة. وهكذا، من الصعب أيضاً الحكم على العمل الإبداعي قبل أن يكتمل حتى النهاية، ولكنني في هذه المرة، سوف أغير طريقتي، فإنني سأعلن على الملأ، وبالأصح أن أتقاسم مع الناس الأفكار حول اللوحة التي لم أرسمها بعد.

هـذا، لـيس بمثابـة نـزوة، فأنـا لا أسـتطيع أن أتصـرف بشـكل آخـر، لأنـني أشـعر - كـم أنـا ضـعيف أمـام تحقيـق هـذا بمفـردي، فالتـاريخ، الـذي يحـرك روحـي، ويـوقظني ضـمن جدليـة، «هـو وأنـا»، حتى مجرد أن أمسك ريشـة الفن، هـي مسـؤولية كـبيرة، وعلـى درجـة كـبيرة مـن الأهميـة، ويشـعرني بعجـزي في وحـدتي، فكيـف لـي أن أحيط به كله مع كبره واتساعه، فأخاف جداً أن لا أحقق المطلوب، كما أخاف أن أصب في الفنجان الذي طفح. أريد أن يسـاعدني النـاس بالنصـح، وأن يشـيروا علـيّ حتـى أرى الحلـول، وحتـى يقفـوا معـي ويكونوا إلى جانبي دائماً بأفكارهم عند منصة الرسم، وحتـى يعيش الناس، ويقلقوا من أجلي في لحظات الإبداع.

فـلا تبخلـوا بـدفء قلـوبكم، واقتربـوا مـني أكثـر، فعلـيَّ وأنـا ملزم، أن أعكس هذه الصفحة من التاريخ...



تقع قريتنا كوركوريو عند سفح الجبـال، فـوق وهـدة واسـعة، وإلى هنـاك تجـري مسـرعة الكـثير مـن الأنهـار، الـتي تجتـاز المضـائق، والمنحدرات والانكسارات، وهي تضج بشلالاتها مخترقة هـذه الهضـبة من نقاط عدة، وإلى الأسفل مـن القريـة، يمتـد الـوادي الأصـغر الطويـل جداً إلى سهول كازاخستان الواسعة المطوقـة بسـلاسـل الجبـال السـوداء حتـى الخـط القاسـم للسـكك الحديديـة الممتـدة بعيـداً خلـف الأفـق إلى الغرب عبر السهول.

وفوق القرية، وعلى رابية مشـرفة عليهـا مـن علٍ، تشـمخ حورتـان كبيرتان، إنني أذكرهما منذ فترة طويلة، كما أذكر حيـاتي كلـها. ومن أية جهة تحاول أن تقترب من قريتنا كوركوريو، سترى، وقبـل أن تـرى أيـاً كـان مـن بيـوت القريـة، هـاتين الشـجرتين العملاقـتين، فهمـا

باسقتان أمام الناظر كأنهما منارةً على جبل، ولا أعرف كيف لي أن أفسر هذا، - ربما لأنهما مرتبطتان بسنوات الطفولة وانطباعاتها الخلاقة، وهي غالية على الإنسان طوال حياته، وإما لأنهما تستهويان دائماً مزاجي وإعجابي كرسام، - وفي كل مرة، عندما أنزل من القطار، وأتوجه إلى الجنوب، عبر السهول، إلى قريتي، فإن أول ما أقوم به من واجبات هو أن أبحث وعبر مسافة طويلة عن هاتين الحورتين، وأكحل عينيَّ برؤيتهما.

ومهما كان ارتفاعهما عالياً، فمن الصعب، أن يراهما الإنسان من هذه المسافة، ولكنهما وبالنسبة إليّ لا أجد صعوبة في رؤيتهما، كأنما تم زرعهما لعينيّ فقط اللتين تقعان عليهما مباشرة.

وكم من مرة سافرت عائداً إلى قريتي كوركوريو من مناطق بعيدة. وأنا أفكر بشوق وحنين مُستعرين: «أقريباً سأشاهد الحورتين التوءمين؟ حبذا لو أصل على جناح من السرعة إلى القرية، إلى ظل الحورتين فوق التل، وأبقى هناك واقفاً مدة طويلة حتى أصبح كالثمل من سماع حفيف أوراقهما».

☆ ☆ ☆

في قريتنا توجد أشجار متنوعة، ولكن لهاتين الحورتين وقع خاص في نفوس السكان - لأن لهما لغتهما الخاصة، وبالتالي يجب أن تكون لهما روحهما الخاصة أيضاً، ففي أي وقت يأتي إليهما الإنسان، عند الظهيرة أو في المساء، أو في الليل، يجدهما تهتزان بأغصانهما مرحبتين، وتعزفان بحفيف أوراقهما سيمفونية هادئة ومتنوعة من دون صمت، ويبدو أحياناً كأن موجة جديدة هادئة تغمر ببطء رمال الشاطئ النقية، كما يحس الإنسان كيف يغمر النسيم الأغصان كأن هناك شعلة شفافة غير مرئية، تبعث دفئاً خاصاً وتنطفئ لبرهة

قصيرة، وهنا تتنفس الحورتان، بكل ما في داخلهما من نشوة حفيف الأوراق وتتنهدان بعمق شديد، وكأنهما تحزنان على ذكر إنسان عزيز، وعندما تأتي غيمة متجهمة مسرعة ضمن عاصفة تكسر بعض الأغصان، وتسقط بعض الأوراق، فإن التوءمين الحورتين تهتزان باهتمام، وتضجان كشعلة صاخبة.

فيما بعد، وبعد الكثير من السنين، أدركت السر الكامن في الحورتين، إنهما تقفان على مرتفع، وتتفتحان كل الانفتاح بأنفاسهما، على كل الجهات، وتستجيبان لكل حركة صغيرة، لنسيم رقيق، وكل ورقة فيهما تحس بشفافية أية نفحة نسيم، مهما رق وخف.

ولكن اكتشاف هذا السر لهذه الحقيقة الطبيعية، لم يبعث في عالمي أياً من ضعف الاهتمام الطفولي الرقيق، والذي كنت أشعر به، وأحافظ عليه إلى هذا اليوم، ولهذا أشعر حتى الوقت الحاضر، أن هاتين الحورتين التوءمين، فوق التل هما حيتان بكل ما تمتاز به الحياة من رقة وإحساس، وهناك بالقرب منهما، كانت سنوات طفولتي كقطعة زجاج أخضر سحري.

وفي المرة الأخيرة في فترة الدراسة، وقبل العطلة الصيفية، جئنا نحن الأولاد نركض كالعادة مسرعين إلى هنا، حتى نفتش عن أعشاش الطيور فوق أغصانهما، وفي كل مرة، كنا نأتي بصراخنا، وصفيرنا، وقهقهاتنا، ونحن نصعد إلى هذا التل مقتربين من الحورتين. كنا نرى، كيف تقوم هاتان الشجرتان العملاقتان باهتزازات قوية متمايلة من جهة لأخرى وبالعكس، وكأنهما تقومان بإلقاء التحية علينا، وهما تفتحان صدرهما الوارف الظلال لنتنعم به تحت حفيف الأوراق الناعمة. أما نحن الأولاد الحفاة المشاغبون فنقوم بتكوين درج من أجسامنا، كي يصعد الواحد على كتف الآخر، ونحن نتمسك

بنتوءات الأغصان صاعدين للأعلى إلى عالم الطيور وأعشاشها، فتهب أسراب الطيور مستنفرة خائفة وهي تزقزق بغضب فوقنا، ولكننا لا نعيرها اهتماماً، ونتابع صعودنا إلى الأعلى، نتسابق فيما بيننا، لنتبين مَن الأكثر شجاعة وجرأة وسرعة على الصعود! ومن الأعلى تتكشف أمامنا لوحة خلابة، لا تراها إلا الطيور من الأعالي، حتى تبدو أنها جزء من عالم سحري يمتد أمام نظرنا، وندقق بخفايا الجمال الكائن في وحدة الفضاء الرحب المتناغم مع الضوء الخلاب.

كنا نعجب إعجاباً كبيراً بسعة الأرض وأفقها الفسح أمامنا، حتى نحبس أنفاسنا معجبين وكل منا يجلس على غصن من الأغصان، ويدقق النظر في زاوية ما، وننسى البحث عن الأعشاش. بدت إسطبلات الخيول، التي كنا نحسب أنها أكبر بناية في الدنيا، بدت لنا وكأنها حظيرة صغيرة، وخلف القرية، امتدت السهول الفسيحة في ضباب خفيف، وحين لم تعد تظهر لنا نهاية أو حدود... أخذنا ننظر إلى التلال والهضاب المتوزعة في الأفق البعيد الذي يستطيع النظر أن يصل إليه، وشاهدنا من الأعالي الأراضي التي لم نرها من قبل، ولم نفكر بها، كما شاهدنا الأنهار النقية التي بدت لنا من بعيد كخيوط رفيعة. كنا نفكر ونسأل ونحن فوق الأغصان: أهذه هي نهاية الكون، أو ما زال يوجد بعد هذا، شيء آخر؟ وسماء أخرى! وغيوم ثانية غير تلك الملبدة فوقنا، كما توجد السهول والأنهار أيضاً؟ أخذنا نصغي، ونحن فوق الأغصان إلى صفير الرياح البعيدة عن الأرض، وكيف كانت تتجاوب الأوراق معها بود ووفاء، وهي تدعونا إلى مناطق بعيدة وجميلة وساحرة، كانت تختبئ خلف الأبعاد المرئية.

استمعت إلى حفيف الحورتين، بينما كان قلبي يدق بسرعة من الفرح والخوف، وتحت سماع هذا الحفيف، الذي لا يهدأ، أخذت أتصور

في نفسي تلك الأصقاع البعيدة. ولكنني لم أفكر في تلك اللحظة بمن زرع هاتين الشجرتين؟ وبماذا كان يحلم، وبماذا كان يفكر ذلك الإنسان المجهول، وهو يغمس جذور هاتين الشجرتين، وأية آمال وأحلام استدعته لتربية هاتين الحورتين فوق هذا التل؟

على هذا المرتفع، حيث شمخت على قمته الحورتان، أصبح السكان يطلقون لقب «مدرسة ديويشين»، وأذكر، إذا أراد أحد السكان أن يبحث عن فرس ضائعة، كان يتوجه هذا الإنسان إلى إنسان آخر يصادفه في الطريق: «اسمع، هل رأيت حيواناً ضائعاً بطريقك؟» - وغالباً ما كان يأتيه الجواب التالي: «هناك في الأعلى بالقرب من مدرسة ديويشين خيول ترعى، اذهب، وهناك ربما ستجد ضالتك». ونحن الأولاد أخذنا نقلد الكبار بالسن، ومن دون تفكير، كنا نكرر: «تعالوا نذهب أيها الشباب، إلى مدرسة ديويشين، نطارد العصافير فوق الحورتين!».

ولقد رويت الأحاديث، أنه، وفي وقت من الأوقات، كانت مدرسة فوق هذا التل، أما نحن فلم نر لها أية آثار، وفي الطفولة حاولت أكثر من مرة، أن أجد بعض الآثار، وتجولت، وبحثت، ولكن لم أجد أي شيء، ثم أخذ الأمر يظهر لي غريباً، أن هذا التل العاري أخذ يلقب بـ«مدرسة ديويشين»، وسألت كثيراً عند الكبار بالسن، من هو هذا الشخص ديويشين، فأجاب أحدهم، ولاح بيده بلا اهتمام: «من هو ديويشين؟ إنه ذاك الشخص، الذي يعيش هنا، من سلالة النعجة العرجاء، وكان هذا منذ زمن بعيد، أما ديويشين فكان آنذاك عضو في الكومسومول، وهناك فوق التل حيث توجد إسطبلات مهجورة. فقد أسس هناك مدرسة، وأخذ يعلم الأولاد، وهل يا ترى أن تلك المدرسة، كانت مجرد اسم فقط. كل شيء آنذاك كان رائعاً

وعظيماً، ويا لها من أوقات ثمينة وغالية على قلوب من عاشها، حيث انتشر مبدأ آنذاك، مفاده: كل شاب قادر على أن يمسك بشعر رقبة الحصان، ويضع رجله في الركاب، ويمتطي صهوته، كان يعتبر مستقلاً ورجلاً بمعنى الكلمة، وهكذا ديويشين أدرك مبكراً ما هو ضروري، وقام بتنفيذه على الفور، أما الآن فلن تجد حجراً من تلك الإسطبلات العتيقة، والشيء العظيم، أن الاسم قد بقي محفوظاً...

فأنا لا أعرف ديويشين جيداً، ولكني أذكر أنه رجلٍ مسن، طويل القامة، ذو رأس كبير، وله حاجبان كحواجب الصقور، ولقد كان بيته إلى جانب النهر من الجهة الأخرى. عندما كنت أعيش في القرية، كان ديويشين يعمل ميراب(*) الكولخوز، وكان دائماً يعمل لفترة طويلة في الحقول، ونادراً ما كان يمر من باب المصادفة من شارعنا، وهو يربط إلى سرج حصانه فأساً كبيراً، وحتى الحصان، كان يشبه إلى حد بعيد صاحبه - طويل القامة، ضعيف القوام، وفيما بعد هرم ديويشين، وقيل إنه أصبح يوزع البريد، وكل هذا شيء إيجابي، ولكن المسألة تنحصر في شيء آخر، فحسب مفهومي القديم عن الكومسومولي - فهو مُجد وسريع وناري في العمل، ورجل فارس، يحافظ على كلمته التي يتفوه بها، ولا يخاف من قول كلمة الحق، ويخطب في الاجتماعات، ويكتب في الصحيفة عن الكسالى وضعاف الشخصية المتسكعين، ولم أكن أقدر على تصور هذا الرجل المسن صاحب اللحية البيضاء، المسالم، أنه كان في يوم من الأيام كومسومولياً، زد على ذلك، وهذا أثار استغرابي، إنه يُعلّم الأطفال، في الوقت الذي كان هو بالذات غير متعلّم، كلا، إن عقلي لم

(*) ميراب: شخص قيادي وذو خبرة في إنشاءات وأنظمة الري الزراعية.

يستوعب كل هذا حتى النهاية! ويمكن القول، وبصراحة، إن قصة هذا الرجل، تعد واحدة من القصص الخرافية القديمة والكثيرة التي تُحكى وتعيش في عقول أبناء قريتنا، ولكن كل شيء قد ظهر ليس كذلك...

ففي الخريف الماضي، استلمت برقية من القرية، حيث قام أبناء قريتنا بدعوتي لحضور افتتاح مدرسة داخلية في القرية، ونُظم هناك احتفال مهم، ولقد قام الكولخوز ببناء هذه المدرسة الداخلية من مخصصاته، وبأيدي أبنائه، فقررت على الفور أن أسافر إلى هناك، ولم يكن بإمكاني أن أغيب عن هذا الاحتفال المهم لأبناء قريتي، وهل يجوز أن أبقى قابعاً في البيت وقد علمت بموعد الاحتفال؟ وصلت إلى القرية قبل أيام عدة من الموعد، وفكرت أن أتجول، وأتفحص، وأبحث عن أفكار جديدة لرسومات جديدة، وعلمت أن الأكاديمية سليمنوفا ستكون من بين المدعوين، وستبقى في القرية يوماً أو يومين، ثم تغادر إلى موسكو.

علمت أن هذه المرأة الشهيرة، أمضت طفولتها في قريتنا، وغادرتها للدراسة في المدينة، وعندما أصبحت من سكان المدينة، سعيت حتى تعرفت إليها، وكانت حينذاك في منتصف عمرها، تبدو بصحة جيدة، والشعر الشائب قد غلب على شعرها السابل الناعم المسرح، ولقد أشرفت ابنة بلادنا الشهيرة على قسم الفلسفة في الجامعة، وكانت تلقي المحاضرات في علوم الفلسفة، كما تابعت أبحاثها في أكاديمية العلوم، وغالباً ما كانت تسافر إلى خارج الاتحاد السوفييتي، وبكلمة لقد كانت إنسانة مشغولة، وليس لديها وقت فراغ، ولم أجد الفرصة للتعرف إليها من كثب، ولكن، وفي كل مرة، كنا نلتقي من باب المصادفة، كانت تهتم جداً بحياة

قريتنا ، ولم تترك فرصة ، إلا وتتكلم، ولو باختصار ، عن بعض لوحاتي، وذات مرة ، قررت أن أقول لها :

- حبذا لو قررت يا ألطاناي سليمنوفا ، أن تزوري القرية ، وأن نلتقي مع أبناء المنطقة الذين يعرفونك جيداً ويحترمونك، ويتفاخرون باسمك، ولكنهم يعرفونك بالأخبار والأحاديث المتناقلة من شخص إلى آخر فقط، ويحدث أن يقول بعض الغيورين والمعجبين، إن قريبتنا ، ابنة قريتنا العالمة المشهورة، قد نسيت الطريق إلى القرية كوركوريو ، ولا نريد أن نفكر بأنها تتجاهلنا.

- بالطبع، من الضروري، أن أسافر إلى هناك، - ابتسمت العالمة ألطاناي سليمنوفا بكآبة - فأنا أحلم منذ زمن بعيد بهذا ، وأن أزور كوركوريو ، أشعر بأنه قد مضى قرن تقريباً ، ولم أذهب إلى هناك، حقاً ، إنه لم يعد عندي هناك أقارب في القرية ، ولكن الأمر لا يتعلق بهذا ، وليس هو السبب، وأقول وبكل تأكيد ، إنني سأسافر، لقد اشتقت إلى القرية وأقلقني الحنين إلى مرابع الطفولة القريبة والعزيزة على قلبي.

وصلت الأكاديمية ألطاناي سليمنوفا إلى القرية، عندما التأم الاجتماع الاحتفالي في المدرسة ، وكان على وشك أن يبتدئ، ومجرد أن شاهد سكان الكولخوز من النوافذ سيارة الأكاديمية ، حتى خرجوا على الفور إلى الشارع، وأقبل من يعرفها ، ومن لا يعرفها ، كبار في السن أو من جيل الشباب، أقبل الجميع راغبين أن يصافحوا ويشدوا على يديها ، ولم تتوقع ألطاناي سليمنوفا مثل هذا اللقاء، وقد بدا لي هذا من خلال ارتباكها ، فوضعت يديها على صدرها ، وأخذت تنحني احتراماً وتقديراً للناس، وشقت طريقها بصعوبة إلى منبر المنصة.

من الطبيعي أن الأكاديمية ألطاناي سليمنوفا ، قد حظيت

بالعديد من المناسبات والاحتفالات وبالاستقبالات الدافئة مع كل الاحترام والتقدير، ولكن هنا في مدرسة ريفية بسيطة، كان دفء الاستقبال من قبل أهالي قريتها أكبر من دفء أي استقبال آخر، وهذا ربما هز مشاعرها وحنينها، وأقلقها لدرجة كبيرة، ولقد حاولت أن تخفي الدموع الكثيفة جداً بلا جدوى.

بعد الجزء الخطابي، قام الأولاد الطلائعيون بوضع شال أحمر على رقبة الضيفة الغالية، وقدموا لها كثيراً من باقات الزهور، بمناسبة قدومها، ثم قام الطلائعيون بافتتاح سجل لكلمات الشرف الموجهة إلى المدرسة الجديدة، ثم أقيم برنامج فني لطلاب المدرسة، وكانت حفلة المساء جميلة ومتميزة وممتعة، وبعد الحفل الفني، قام مدير المدرسة بدعوتنا - كضيوف شرف، ومعلمين، ونشطاء في الكولخوز - إلى بيته.

وهنا كان بإمكاننا الفرح والاحتفال، بقدوم ألطاناي سليمنوفا التي جلست في المكان الأكثر تقديراً، والمزخرف بالسجاد المشكل الجميل، وكان بإمكان الجميع أن يقتربوا منها ويعربوا عن احترامهم لها، وكما يحدث عادة في مثل هذه الحالات، كان الصخب يعم المكان، إذ تحدث الضيوف بحيوية ونشاط، ورفعوا الكؤوس، وتبادلوا الأنخاب، وكان أن دخل إلى البيت شاب محلي، وقدم لصاحب البيت حزمة برقيات، وأخذ المقربون بقراءتها، وهي برقيات أرسلها التلاميذ القدامى الذين أنهوا الدراسة في المدرسة منذ سنوات، ويعبرون فيها عن مشاعرهم، ويقدمون التهاني لأبناء قريتهم بافتتاح المدرسة الجديدة الداخلية، وهنا سأل المدير الشاب:

- اسمع، وهل هذه البرقيات هي التي جاء بها الكهل ديويشين؟

- نعم، - أجاب الشاب. - كان طوال الطريق يتكلم، ويحث

الحصان ويلسعه بالسوط حتى لا يتأخر عن الاجتماع، وحتى تقرؤون هذه البرقيات أمام الشعب، لقد تأخر قليلاً، وحرم نفسه من حضور الاجتماع، ووصل غير راضٍ عن نفسه.

- ولماذا يقف هناك، دعه ينزل عن الحصان، ناده إلى هنا!

خرج الشاب ينادي ديويشين، أما ألطاناي سليمنوفا، التي تجلس إلى جانبي قد اضطربت، وقلقت لسبب ما، وتحركت في مكانها باستغراب، وكأنها تذكرت مسألة مهمة في تاريخ حياتها، وسألتني، عن أي ديويشين يتحدثون؟ قلت لها:

- هذا رجل يعمل موظف بريد في الكولخوز يا ألطاناي سليمنوفا، وسألتها هل تعرفين الكهل ديويشين؟ حركت رأسها بصورة غير محددة، ثم حاولت أن تقف في مكانها، ولكن، وفي هذه اللحظة، مر من جانب النافذة رجل يحث الحصان الذي يمتطيه على الإسراع، وعاد الشاب مسرعاً، وهو يقول للمدير:

- لقد ناديته، يا آغا، ولكنه غادر، وقال، إنه من الضروري أن يسلم الرسائل لأصحابها.

- دعه، وليس من الضروري تأخيره عن عمله، فيما بعد سيجلس مع الكهلة، - قال أحد الموجودين بنبرة فيها شيء من عدم الرضا.

- أ - أ ! أنتم لا تعرفون صديقنا ديويشين! إنه إنسان منضبط كلياً، وما دام لديه رسالة واحدة لم يوصلها، لن يرتاح، ولن يذهب إلى أي مكان.

- حقاً، إنه إنسان ذو طبع خاص. بعد الحرب الوطنية أنهى المعالجة في المشفى العسكري، وكان هذا في أوكرانيا، ولقد بقي هناك للاستمرار في الحياة، وعاد قبل خمس سنوات، ويقول، إنه عاد، حتى يموت في وطنه. لقد عاش طوال حياته أعزباً...

- وعلى أي حال، حبذا لو دخل الآن إلينا... ولكن ما العمل.
- قال المدير، - أيها الرفاق، عندما درسنا سابقاً، إذا كنتم تذكرون، في مدرسة ديويشين، - رفع أحد السكان المحترمين في القرية كأساً، - فلم يكن ديويشين يعرف الأحرف الأبجدية كاملة، فعندما كان يلفظ الأحرف، كان يطبق عينيه، ويهز رأسه، وكان مظهره العام يدعو للاستغراب والضحك في الوقت نفسه.
- حقاً، كان الأمر كذلك، - قال عدد من الحاضرين بصوت واحد، ضحكوا، ضحك الجميع.
- فماذا من الممكن القول؟ وأية تصرفات طريفة لم يقم بها ديويشين آنذاك، أما نحن، وبكل جدية، كنا نتعامل معه، ونحسبه معلماً حقيقياً، ونحبه حباً جماً. عندما هدأ الضحك، تابع الرجل، الذي رفع الكأس:
- أما الآن، فلقد تطور الناس بسرعة، فالأكاديمية ألطاناي سليمنوفا معروفة في كل البلاد، ونحن الأغلبية هنا من ذوي التعليم المتوسط، وعدد منا يحمل شهادات عالية، واليوم افتتحنا في قريتنا مدرسة متوسطة داخلية، وهذا يدل على مدى تطور الحياة، ولهذا، تعالوا أيها الأخوة، أبناء قريتنا، أن نرفع نخب أولادنا وبناتنا في قرية كوركوريو، متمنين لهم المستقبل الأجمل!
تعالى الصخب مرة أخرى، وصفق الموجودون مؤيدين النخب، أما ألطاناي سليمنوفا وحدها، فقد احمرت خجلاً، وغرقت في حياء نال منها ما نال، ولامست بشفتيها حافة الكأس من دون أن تشرب، ولكن الناس، وهم في مزاج حسن، ومشغولون في أحاديثهم الخاصة، لم يلحظوا وضع الأكاديمية.
بين الفينة والأخرى، كانت ألطاناي سليمنوفا تنظر إلى

ساعتها، وفيما بعد، وعندما خرج الجميع إلى الشارع، ولاحظت أنها تقف جانباً، بعيدة عنهم، عند طرف القناة، كانت تنظر محدقة إلى التل - هناك، حيث تهتز، تحت تأثير الريح أغصان شجرتي الحور في فصل الخريف، وقد بدت أوراقها صفراء نسبياً. كانت الشمس تقترب من المغيب - عند الشفق الليلكي في نهاية السهوب الضبابية البعيدة. لقد أنارت من هناك بضوء راح يخمد تدريجياً بعد أن لوّنَ أعالي الحورتين بألوان حزينة متناوبة.

اقتربتُ من ألطاناي سليمنوفا، وقلتُ لها:

- الآن كما ترين تُسقطان أوراقهما، ولو نظرتِ إلى مشهدهما في الربيع، لتبدلت اللوحة كلياً، أعني في أيام تفتح الأزهار.

- ها أنا، أفكر بهذا بالذات، - تنهدت ألطاناي سليمنوفا، وصمتت قليلاً، ثم أضافت، وكأنها تحدث نفسها بكل هدوء: - نعم، لكل كائن حي في الدنيا، خريفه، وربيعه.

لاحظتُ وأنا أدقق النظر إلى وجهها أن التجاعيد بدأت تظهر على وجهها الواسع، وحول عينيها وجعلتها تبدو ذات صبغة حزينة، على خلفية تفكير عميق في معنى الحياة، كانت تنظر إلى الحورتين على طريقة النساء بشيء من المرارة الكئيبة، وفجأة رأيت أمامي، ليس الأكاديمية سليمنوفا، بل امرأة قرغيزية بسيطة، تبدو واضحة، ويظهر عليها الحزن والفرح مباشرة من دون أي تمويه. لقد تذكرت هذه المرأة العالمة الآن مرحلة شبابها، كما في الأغنية، التي تغنى عندنا «لن يصل صوتك، ولو صرخت من أعالي ذروة الجبال»، وكما اتضح لي، أنها أرادت أن تقول شيئاً ما، وهي تنظر إلى الحورتين، ولكنها، وكما يبدو قد أحجمت عن ذلك، وكانت تضع النظارات فوق عينيها، ثم تعيدها إلى يدها، وسألت مستفسرة:

- كما أعتقد، وأذكر فإن قطار موسكو يمر من هنا في الحادية عشر، أليس كذلك؟

- نعم في الحادية عشر ليلاً.

- يجب أن أجهز نفسي للسفر في هذه الرحلة.

- لماذا، هكذا، وبهذه الصورة المباشرة؟ فلقد أعطيت وعداً أنك ستبقين هنا عدة أيام، فالشعب هنا لن يسمح لك بالسفر.

- كلا، لا أستطيع، لديَّ أعمال لا تحتمل التأجيل، عليَّ أن أسافر الآن.

لقد حاول أبناء القرية أن يقنعوها، وبشتى الوسائل والحجج، ولكن ألطاناي سليمنوفا لم تغير قرارها، وفي ذلك الوقت، أخذت تحل الظلمة، فأجلسوها في سيارة بعد أن أعطتهم وعداً بزيارة أخرى طويلة مدتها أسبوع، وربما أكثر، ولقد رافقت ألطاناي سليمنوفا حتى محطة القطارات.

لماذا أخذت ألطاناي قراراً بالعودة على جناح من السرعة؟ ولقد أغاظت أبناء قريتها، وخاصة في مثل هذا اليوم الذي احتفل بها الجميع، وبدا لي الأمر أنه موقف غير عقلاني منها، لا أدري!

وخلال الطريق، فكرت أن أسألها عن سبب مغادرتها بهذه السرعة، ولكنني لم أتجرأ، ليس لأنني خفت أن أظهر أمامها بمظهر الإنسان غير المثقف والفضولي، - فأنا قد فهمت، أنها لن تجيبني مهما حاولت الاستفسار منها، والتزمت الصمت طوال الطريق، وهي غارقة بالتفكير العميق، وبلا حدود.

في المحطة، لم أصبر على هذا، فسألتها:

- يبدو لي يا ألطاناي سليمنوفا أنك معكرة المزاج، عسى أننا لم نرتكب خطأ ما، وأزعجناك؟

- لماذا تفكرون هكذا ، لا تحاولوا أن تفكروا بهذه الطريقة! ليس بإمكاني أن أغضب من أحد! والأحق أن أغضب من نفسي، نعم، فمن ذاتي من الممكن أن يتعكر مزاجي.

وهكذا، سافرت ألطاناي سليمنوفا ، وعدت أنا إلى المدينة ، وبعد أيام عدة ، استلمت منها رسالة ، وكان ذلك مفاجئاً ، وتخبرني أنها سوف تبقى في موسكو مدة أطول مما توقعتْ، قالت فيها :

«بغض النظر أنه توجد لديَّ الكثير من الأعمال، التي تتطلب التنفيذ بسرعة. لقد قررت تأجيلها ، حتى أكتب لكم هذه الرسالة... وإذا كان ممتعاً لكم أن تعرفوا لماذا أكتب لكم من هنا ، فإنني أقول، وبكل ثقة ، وأطلب منكم أن تفكروا بهذا ، وبشكل جدي، وحتى يُستخدم كل هذا ، حتى تشرحون للناس عن كل شيء سوف أحدثكم به. فأنا أرى أن هذا ليس ضرورياً لأبناء منطقتنا فقط، بل هو ضروري للجميع، وعلى وجه الخصوص للشباب، لقد وصلت إلى هذه القناعة بعد تفكير طويل، وهذا بمثابة الاعتراف أمام الناس، وعليَّ أن أنفذ واجبي، وكلما عرف أناس ومواطنون أكثر بهذه الحقيقة ، شعرت أن ضميري مرتاح وهادئ، ولن أتعذب من تأنيب الضمير. ولا تخاف، أو تحسب حساباً ، أنك تضعني في وضع حرج، وأنا لا أخفي شيئاً مما سأقوله لك، ولاسيما عن أهالي المنطقة».

لقد عشت عدة أيام، وأنا أحيا بكل مشاعري وإحساسي مع كل حرف جاء في رسالتها ، ولم أجد طريقاً أفضل وأحسن للتحدث بكل ما كتبت عنه ، من أن أروي كل هذا على لسان ألطاناي سليمنوفا بالذات.



كان هذا في عام 1924، نعم، بالضبط في هذا العام...

وهناك، حيث يتموضع كولخوزنا، وكان آنذاك يخطو الخطوات الأولى في تكوينه، على طريق العمل والبناء، إذا باشر ببناء عدة مساكن بسيطة لرعاة قرروا التحضر، والاستقرار بعد الترَحال الطويل مع رعي المواشي، وكان وضع هؤلاء فقيراً للغاية، كان لي من العمر آنذاك أربعة عشر عاماً، وعشت عند ابن عم أبي المتوفى، علماً أن أمي لم تكن على قيد الحياة أيضاً.

وفي خريف ذلك العام، وبعد أن قام أولئك، من ذوي الوضع الأفضل مادياً، بأعمالهم في الجبال، وانحدروا لقضاء فترة الشتاء عندنا في القرية، ومعهم حضر شاب مجهول في معطف عسكري، ولقد ارتسمت صورة معطفه في ذاكرتي، لأنه كان من قماش أسود سميك، وظهور هذا الإنسان في معطف حربي، كان حدثاً غريباً بالنسبة لقريتنا البعيدة عن طرق المواصلات، التي لم تتجاوز عتبة الجبال بعد، بل اعتبره البعض حدثاً فريداً من نوعه.

في بداية الأمر، أخذ الناس يؤكدون، أنه كان في الجيش قائداً حربياً، ولذلك تم إرساله الآن، حتى يكون في القرية مديراً، وتبين فيما بعد أنه ليس قائداً، وليس مديراً، بل هو ابن ذلك الشخص المدعو تاشتان بيك، الذي غادر القرية، وأخذ يعمل في السكك الحديدة في أيام المجاعة القاسية، التي استمرت فترة طويلة، ولم تنتهِ إلا منذ فترة، أما هو، فقد اختفى كلياً، وهذا القادم إلينا ابنه ديويشين، وقيل إنه مُرسل إلى قريتنا، من أجل أن يفتتح مدرسة، ويبدأ بتعليم الأطفال.

في تلك الآونة، كانت هذه الكلمات، مثل «مدرسة»، أو «دراسة»، تعتبر كلمات جديدة، على من يسمع بها، ولم يفهم الناس معنى هذه الكلمات، وماذا يقصد بها. هناك من صدق هذا الكلام،

ورأى فيه البعض الآخر، أنه مجرد ثرثرة نساء، لا عمل لهن إلا نشر الشائعات، وكان من الممكن أن يتناسى الأهالي موضوع المدرسة، لولا أن الأمر تطور لدعوة السكان إلى اجتماع فعلي، أما عمي، فقد أخذ يعرب عن عدم رضاه عن كل هذا: «ماذا سيكون وراء هذا الاجتماع؟ ولن يكون أكثر من العادة: يعطلون الناس عن أعمالهم، وكسب عيشهم لأمور التافهة»، - ولكنه، وبعد حديث طويل، وضع السرج على حصانه، وذهب إلى الاجتماع حسب العادة، - وكما يجب بالنسبة للرجل، الذي يحترم نفسه، وعلى أثره انطلقتُ مع أولاد الجيران، لنعرف ماذا وراء هذا الاجتماع من باب الفضول.

وصلنا إلى المكان، الذي تعقد فيه الاجتماعات عادة، ونحن نلهث من الركض، وهناك بالقرب من التل، تجمع عدد من الخيالة، وآخرون أتوا مشياً على الأقدام، وفجأة أخذ يتكلم ذلك الشخص صاحب الوجه الشاحب في المعطف الأسود، مخاطباً الناس من حوله. ولم يكن بإمكاننا أن نسمع ما يقول من كلام، فاقتربنا إلى الأمام، وهنا قام كهل في فروة ممزقة، وكأنه استيقظ بعد كابوس أقض مضجعه، وقاطعه قائلاً وهو يغص بكلامه:

- اسمع، يا بني، سابقاً كان الدعاة الدينيون (المولاوات)، هم الذين يعلمون الأولاد، وكنا نعرف والدك: وهو صعلوك فقير مثلنا جميعاً. فقل لي من فضلك، متى تمكنت من أن تتعلم، وتصبح ملا؟

- أنا لست بملا، أيها العم، فأنا كومسومولي، - أجاب ديويشين بسرعة، - والأولاد سيتعلمون من الآن وصاعداً عند المعلم، وليس عند المولاوات، لقد تعلمت القراءة والكتابة في الجيش، وكنت قبل ذلك قد تعلمت قليلاً من أصدقائي ورفاقي، فهل يعجبك هذا الملا، الذي يقف أمامك!

ضحك الجميع من حوله، بينما تابع ديويشين قائلاً:

- هكذا، أخبركم إن الكومسومول قد أرسلني لأعلم أولادكم، ولهذا يلزمنا مكان ما للمدرسة، وقد فكرت أن تفتح المدرسة بمشاركة الجميع، في ذلك الإسطبل القديم للخيول الذي هو فوق التل، فماذا تقولون أيها الإخوة، يا أبناء بلدتنا؟

تباطأ الناس في الإجابة؛ وهم يفكرون: إلى أين سيمضي هذا الإنسان الغريب؟ - قاطع المشاكس صاتيمكول الصمت -، هكذا كان الناس يطلقون عليه لتصرفاته، وكان منذ زمن، ليس بقصير، يقف ويستمع لشتى الأحاديث، وهو يتكئ بمرفقيه على مقدمة سرج حصانه، ويبصق بين لحظة وأخرى، عندما يسمع ما لا يعجبه.

- أنت، توقف أيها الشاب،- قال صاتيمكول، وهو يطبق عينيه قليلاً كأنه يصوب على هدف ما،- قل لي، لماذا تلزمنا هذه المدرسة؟

- كيف لماذا؟ - استغرب ديويشين.

- حقاً ما يقول! وتحرك الجميع، واعتلى الصخب الكلامي، فقال واحد من بين الجمهور:

- نحن منذ غابر الأزمان نعيش بالعمل مع الفلاحة والرعي، والمعول، هو الذي يطعمنا، وأولادنا سوف يعيشون كما عشنا نحن وأجدادهم، فلأي شيطان يلزمهم التعليم، فالعلم ضروري للقيادات، أما نحن فشعب بسيط، ولا تشغل بالنا، وتوجع رأسنا بما هو غير ضروري لنا!

هدأت الأصوات قليلاً.

- وهل من الممكن أن تكونوا ضد تعليم أولادكم؟ - سأل ديويشين مستغرباً، وهو يحدق في وجوه الناس المحيطين به.

- وإذا كنا ضد مقترحاتك هذه، فهل تجبرنا على فعل هذا

بالقوة؟ لقد ولت تلك الأيام، نحن الآن شعب حر، وسوف نعيش، كما نريد!

كاد الدم ينبثق من وجه ديويشين من شدة حنقه، فقطع أزرار المعطف بأصابع يديه المرتجفتين، وسحب من جيب سترته الداخلية ورقة، مطوية مرتين، ففتحها، ورفعها فوق رأسه:

- هذا يعني، أنكم ضد هذه الورقة، حيث جاء فيها أمر بخصوص تعليم الأولاد، ولقد وُضع عليها ختم نظامي للسلطة السوفييتية؟ ومن أعطاكم الأرض والمياه، ومن أعطاكم الحرية؟ فمن منكم ضد قوانين السلطة السوفييتية، مَن؟ أجيبوا!

لقد صرخ كلمة «أجيبوا» بصوت عالٍ، وبنبرة فيها قوة كامنة وهائلة، وبسرعة وتأثير الرصاصة، إذ اخترقت جدران الهدوء الخريفي، وصدرت هذه الكلمة من فمه كطلقة قوية ذهب صداها متردداً في الفضاء، وبين الصخور، لم ينطق واحد من الحاضرين بكلمة، والتزم الناس الصمت، وهم يحنون رؤوسهم.

- نحن فقراء، - أخذ يتكلم ديويشين بهدوء، - لقد آهانتنا الأنظمة السابقة، وحرمتنا من أبسط حقوقنا، واستغلتنا أبشع استغلال، وعشنا في الجهل والتخلف، أما الآن، فلقد أخذت السلطة السوفييتية بيدنا، وتريد أن تنقلنا من الظلام إلى النور، حتى نتعلم القراءة والكتابة، ولهذا من الضروري علينا أن نعلم أبناءنا...

صمت ديويشين لثوان، منتظراً أن يقول أحد شيئاً ما، وعند ذلك، نهض الكهل في فروة ممزقة، الذي وجه له الأسئلة قبل قليل حول، كيف أصبح ديويشين ملا، أخذ يتكلم بصوت معتدل:

- لا بأس، تريد أن تُعلم، فعلمْ إذا أردت هذا، وهل نحن ضد الأمر... فنحن لسنا ضد القوانين أيضاً.

- أرجوكم أن تساعدوني، فمن الضروري أن نصلح هذا الإسطبل القديم للباي فوق التل، وأن نقيم جسراً فوق النهر، ومن الضروري أيضاً أن نؤمن الحطب لتدفئة الأولاد.

- انتظر أيها الفارس، إنك حاذق وشاطر للغاية! - قاطع صاتيمكول كلام ديويشين قبل أن يكمل، وبصق من خلال أسنانه، وأغمض عينيه محدقاً، وكأنه يصوب نحو الهدف قائلاً:

- ها أنت ترفع صوتك على كل رجال القرية: «أريد أن أفتح مدرسة!» ومن خلال النظر إليك - ليس لديك فروة ولا حصان تركب عليه، ولا قطعة أرض تزرعها، ولو كانت بمساحة كف اليد، ولا توجد لديك شاة تشرب حليبها في ساحة بيتك غير الموجود! فكيف تفكر أن تعيش أيها الإنسان (الغالي)! وهل ترغب أن ترعى قطعان الخيول عند الغير... فليس لدينا من قطعان ولا البعض منها، ومن لديه قطعان خيول هو في الجبال.

أراد ديويشين أن يجيب بحدة، ولكنه تمالك أعصابه، وقال بصوت رزين:

- سأعيش بشكل ما، وسوف أحصل على بعض الأجرة.

- آ، آ، من الأفضل لو ابتدأت من هنا! - رفع صاتيمكول صوته سعيداً، وكأنه انتصر في محاولاته لإفشال مساعي ديويشين في مهمته، فرفع كتفيه، وهو يجلس فوق صهوة حصانه. - الآن أصبح كل شيء واضح. فأنت أيها الفارس، اعمل بنفسك ما عليك أن تعمله، وأنفق على الأولاد من النقود التي ستحصل عليها، ففي الخزانة توجد أموال كثيرة، واتركنا في حالنا، فالحمد الله، لدينا الكثير من المشكلات حتى أنوفنا، وعلينا حلها...

وعندما أنهى صاتيمكول كلماته هذه، أدار حصانه، وذهب

إلى بيته، وخلفه سار الآخرون، أما ديويشين، فبقي في مكانه، وهو يحمل ورقته بيده، وبدا كالمسكين الذي لم يعرف إلى أين يتجه...

حزنت جداً على وضع ديويشين، ونظرت إليه مطولاً بلا انقطاع، ومن دون أن أزيح نظري عنه، حتى ناداني عمي، وهو يمر من جانبي، عائداً إلى البيت:

- وأنتِ، أيتها الشعثاء، ماذا تعملين هنا مع الأولاد، وتفتحين فاهك حتى الأخير، اغربي عن وجهي، واذهبي بسرعة، إلى البيت!

- هكذا، أخذت أركض، حتى ألحق بالأولاد، الذين أتوا ليسمعوا نبأ افتتاح المدرسة.

في اليوم التالي، عندما ذهبنا لنجلب الماء مع البنات كالعادة، شاهدنا ديويشين، وهو يحاول أن يقطع النهر إلى الضفة الأخرى، وفي يده رفش، ومعول، وبلطة، وسطل عتيق، ومنذ هذا اليوم، كان هذا الشخص ديويشين في معطفه الأسود يصعد إلى التل، عبر الطريق الضيق إلى الإسطبل الخَرِب المهجور، ويعود من هناك عندما تعم الظلمة متجهاً إلى القرية. مضى على ضهوره هنا فترة من الزمن، وهو يصعد حاملاً حزمه من الأخشاب أو من القش على ظهره، وعندما كان يلحظه الناس من مسافة بعيدة، كانوا يقومون بتحيته، وهم يرتفعون قليلاً على ركابات خيولهم، و يضعون أكفهم فوق عيونهم، كي يروا بدقة، ويقولون باستغراب:

- اسمع، أليس هذا الشخص الذي يحمل الحزمة هو المعلم ديويشين، فيجيب آخر:

- هو بالذات.

- يا له من مسكين! إن عمل المعلم يبدو صعباً، ليس كما كنا نفكر سابقاً أنه من المهن السهلة جداً.

- وأنت كيف تفكر، انظر كم يحمل على ظهره، ليس أقل مما يحمله الأجير الزراعي عند الباي.

- وعندما تسمع حديثه، تفكر أن لا علاقة له بهذه الأعمال الشاقة.

- كل هذا يعود لتلك الورقة، التي في يده، وممهورة بختم الدولة، وكل القوة فيها، وذات مرة، كنا عائدين مع أكياس مليئة بالجلة(*)، التي كان الأهالي يجمعونها، في مرعى الأبقار عند سفوح الجبال، إلى جانب القرية، فتوجهنا إلى المدرسة؛ وكان من الممتع أن نرى ما يفعل المعلم هناك، أما ذاك الإسطبل الذي قرر المعلم أن يحوله إلى مدرسة، كان مبنياً حسب الطريقة القديمة، من الطوب الطيني المضغوط، وكان الباي يضع هنا أناث الخيول التي ولدت أمهاراً حديثة في الطقس الممطر، وبعد مجيء السلطة السوفييتية، هاجر الباي مع خيوله إلى الجبال، وبقي الإسطبل فارغاً، ولم يعد إلى هنا أحد كان، ولقد نمت الحشائش، وكثير من الأشواك الغريبة حوله، وفي ساحته. أما الآن فقد قام المعلم بتنظيف كل هذه الأشواك، واقتلعها من جذورها، حتى لا تعود للنمو ثانية، وتم جمعها في زاوية بعيدة، ثم قام بحرقها، كما قام بتنظيف الساحة. أما الجدران المهدمة، والتي سقط الطين عن بعض أماكنها، فقد قام المعلم بإصلاحها، وأعاد الطين كسابق عهده، أما البوابة، التي تكسرت نسبياً، وسقط جانبها، فقد قام بإصلاحها، وبدلاً من الحبل العتيق، الذي كان يرفع جانباً منها، ليتمكن من إغلاقها، وضع المعلم قفل نظامي.

(*) الجلة- حسب الاستخدام الشعبي في كثير من الدول العربية، تعني الزبل اليابس لمختلف الحيوانات، وتستخدم كوقود في الشتاء، وكان يتم جمعها سابقاً من قبل النسوة والأولاد. -(المترجم).

وضعنا أكياسنا على الأرض، حتى نرتاح قليلاً، فخرج من باب الإسطبل ديويشين، وهو ملطخ كلياً بوحل الطين، وعندما رآنا، فرح مع شيء من الارتباك، ولكنه قام بإلقاء التحية مبتسماً، وهو يمسح العرق عن وجهه.

- من أين أنتن أيتها الفتيات؟

كنا نجلس على الأرض، إلى جانب أكياسنا، وأخذنا ننظر إلى بعضنا بحياء وخجل. أدرك ديويشين أننا نلتزم الصمت من الشعور بالخجل، فأخذ يمازحنا بلطف ومودة:

- هذه الأكياس تبدو أكبر منكن. حسناً فعلتن أيتها الفتيات، أنتن قد أتيتن إلى هنا، فأنتن في المستقبل سوف تتعلمن هنا، والمدرسة مدرستكن، ومن الممكن القول، إنها أصبحت جاهزة تقريباً، ولقد وضعت قبل قليل مدفأة، ومددت لها قساطل كمدخنة إلى فوق السطح، أترون ما أجملها! والآن بقي أن نجمع الحطب لها لفصل الشتاء... وهذه ليست بمسألة معقدة، - حولنا يوجد الكثير من الحطب، وعلى الأرض سوف نفرش القش وبكمية كافية، ونبدأ بالتعلم. أتردن التعلم، وهل ستأتين إلى المدرسة؟

كنت أكبر عمراً من صديقاتي، ولذلك قررت أن أجيب عن نفسي:

- إذا سمحت لي خالتي، فإنني سوف أحضر إلى المدرسة.

- ولماذا، لا تسمح لك، - بالطبع ستسمح، وما اسمكِ؟

- اسمي ألطاناي، - أجبت، وأنا أضع كفي على ركبتي، التي بانت من تمزق في طرف ثوبي.

- إنه اسم جميل، «ألطاناي» - ابتسم بطريقة ما، وأحسست بأريحية ودفء في قلبي، وسألني: ابنة من تكونين؟

التزمت الصمت؛ ولم أحب أن أثير الشفقة عند الناس.

- إنها يتيمة، وتعيش عند عمها، - أجابت الصديقات بدلاً مني.

- إذن، هكذا، يا ألطاناي- ابتسم ديويشين مرة أخرى، - عليك أن تصطحبي إلى هنا أولاداً آخرين حتى يشاهدوا المدرسة، اتفقنا؟ وأنتن أيتها الفتيات، تعالين دائماً إلى المدرسة.

- حسناً، يا عماه.

- نادوني بالمعلم دائماً، وهل ترغبن أن تتطلعن على المدرسة؟ تفضلن ولا تخجلن.

- كلا، إننا سنذهب، علينا أن نعود إلى بيوتنا، - قلنا بخجل.

- حسناً، أسرعن إلى البيت، وسترين فيما بعد، عندما تأتين للدراسة.

أما أنا، فمن الضروري أن أذهب مرة أخرى، وأجمع الحطب، قبل أن تعم الظلمة.

أخذ ديويشين الحبل والمنجل، وسار مسرعاً إلى السهل، ونحن نهضنا أيضاً، ورفعنا الأكياس على ظهورنا، واتجهنا إلى القرية، وفجأة أتتني فكرة غير متوقعة.

- انتظرن يا بنات، قلت لصديقاتي بصوت عالٍ، تعالين نفرغ الجلة في المدرسة، وبهذا سيكون لدينا وقود أكثر للشتاء.

- وكيف لنا أن نذهب إلى بيوتنا فارغات الأيدي؟ يا لكِ من ذكية على اقتراحك!

- سنعود ونجمع مرة أخرى.

- كلا، سنتأخر، ويعاقبوننا في البيوت.

ولم ينتظرن البنات حتى أعود، وغادرن من دوني إلى بيوتهن.

وحتى الوقت الحاضر، لم أستوعب السبب الذي دفعني لاتخاذ

هذا القرار في ذلك اليوم، وربما لأنني غضبت من جبن صديقاتي، لأنهن لم يوافقن معي، وربما لأنني قررت أن أنفذ ما رأيته صحيحاً. أو ربما لأنني كنت أحب الحرية منذ طفولتي المبكرة، وأن رغباتي كانت قد دفنت تحت صراخ وأحقاد الناس الأغبياء، ولكني رغبت فجأة، أن أشكر بأي شيء هذا الإنسان الذي لا أعرفه على ابتسامته الإنسانية نحوي، والتي بعثت الدفء في قلبي، وعلى ثقته بي، وعلى كلماته الطيبة والخيرة، وأنا على ثقة، وأعرف جيداً، أن المصير الحقيقي لي، وكل حياتي بكل أفراحها ومصائبها قد بدأت في ذلك اليوم، مع ذلك الكيس من الجلة، وأقول هكذا، لأنني في ذلك اليوم بالذات، خطوت الخطوة الأولى في حياتي كلها، أن أفعل ما أردت أن أفعله، من دون أن أفكر بالعقاب، فقررت وفعلت ما حسبته ضرورياً عندما غادرت صديقاتي المكان، لقد عدت بسرعة إلى مدرسة ديويشين، وأفرغت الكيس عند البوابة، وفوراً انطلقت بأقصى سرعة للبحث عن الحطب والجلة في الوهاد والوديان، وعند سفح الجبل.

لقد هرعت راكضة إلى هناك، دون أن أفكر، وكأن ذلك ينطلق من بركان القوة في نفسي، وكان قلبي يدق في صدري بكل فرح وسعادة، وكأنني كنت أقوم بتضحية غير محدودة، وكأن الشمس كانت تعرف لماذا أنا سعيدة هكذا. نعم، إنني أثق بأنها عرفت، لماذا أجتهد هكذا، وأركض بسرعة وحرية، وكل هذا، لأنني عملت عملاً خيّراً وكبيراً رغم بساطته.

أخذت الشمس تهبط تدريجياً خلف الجبال، ولكن بدا لي الأمر أن الزمن يسير ببطء، وأن الشمس تنتظرني حتى أنهي عملي، بل كانت تشبع عينيها برؤيتي، وأنا أشق طريقي، حتى إنها زينت دربي، وأضاءته: بانت الأرض الملونة في الخريف تزدهر، وقد فرشت تحت

الأرجل شتى الأوراق بالألوان القرمزية والوردية والبنفسجية، بينما أخذت الإشعاعات البراقة المتلألئة بالانتشار في كل الاتجاهات، واستمرت الشمس بإرسال نورها الملتهب على الأزرار شبه الفضية فوق ثوبي العتيق، وكنت أركض من دون توقف إلى الأمام، وأفكر، وأنا أتوجه إلى الأرض وإلى السماء، والهواء «انظروا إليَّ! انظروا، كم أنا شجاعة وحرة! إنني سوف أتعلم، وسأذهب إلى المدرسة، وسأقنع صديقاتي بالدراسة أيضاً!».

لم ألاحظ، كم مضى من الوقت وأنا أركض، ولكني قد استدركت فيما بعد: «يجب أن أجمع الجلة وفي هذا شيء من الغرابة»: في الصيف، كانت ترعى هنا مختلف أنواع الحيوانات، ومن الممكن أن يجمع الناس هذا الروث الجاف على مدار السنة، كوقود للشتاء، وأينما وجدت، حتى خلال مسيرهم في الطرقات، أما الآن، كأن الأرض قد ابتلعته، وربما، لم أقم بالبحث كما يجب؟ أخذت أسعى بالبحث من مكان لآخر، وكلما تقدمت نحو الجبل، كلما أصبحت هذه المواد، التي أبحث عنها نادرة، وكأن الحيوانات، التي رعت هنا، كانت لا تبرز. عند ذلك أخذت أفكر أنني لم أتمكن من أن أملأ الكيس، ولهذا خفت، وخاصة أنني لاحظت شيئاً يتحرك بين الشجيرات والحشائش الطويلة، فأسرعت في العمل، حتى جمعت نصف الكيس، وعند هذا الوقت كانت الشمس قد غابت، وفي الوهاد أخذت الظلمة تنتشر بسرعة.

لم يعد لديّ أي وقت، فأنا وحيدة في الجبل، في هذا الوقت المتأخر، وفوق هذه المنطقة الخالية من البشر، ومن الأصوات البشرية بين التلال الخرساء التي ارتدت العباءة السوداء من الليل. لم أعد أذكر نفسي تحت وقع الخوف، فقذفت بنصف الكيس فوق كتفي،

وأخذت أركض إلى القرية. شعرت أن شعر رأسي قد وقف من خوف رهيب، وكنت أشعر بأنني سأصرخ بين لحظة وأخرى، وأبكي، ولكن، الذي كان يمنعني من هذا، ويساعدني أن أبقى متمالكة الأعصاب هو، أنني أخاف أن يراني المعلم ديويشين، وماذا سيقول عن حالة الضعف عندي، لو حدث ذلك. ولذلك حافظت على رباطة جأشي، وأنا أمنع نفسي من النظر حولي من شدة الخوف، وكأن المعلم كان يراقبني على مقربة من دون أن أراه.

ركضت إلى البيت، وأنا مضطربة والعرق يتصبب والغبار فوق ثيابي، وكنت ألتقط أنفاسي بصعوبة، حتى عندما دخلت من العتبة. أما خالتي الجالسة عند الموقد، نهضت من مكانها على عجل مهددة، لقد كان الشرر يتطاير من عينيها كامرأة خشنة المراس.

- أين كنتِ حتى هذا الوقت؟ - تقدمت نحوي، ولم أقل لها كلمة، حتى أخذت الكيس عن كتفي، وقذفت به جانباً. - هذا كل شيء قمتِ بجمعه طوال اليوم؟

واتضح الأمر، أن صديقاتي قد أخبروها، وثرثروا أكثر من اللازم.

- آه لك، أيتها الحقيرة السوداء! ما الذي أخذك إلى المدرسة؟ لماذا عدت حية من هناك، كان من الأفضل أن تنفقي هناك في هذه المدرسة! - أمسكتني خالتي من أذني، وأخذت تضربني ضرباً مبرحاً على رأسي. - يا لك من يتيمة تافهة! فالذئب لن يصبح كلباً، كل الأولاد في بيوتهم منذ زمن، أما أنت - خارج البيت، سأريك المدرسة، حاولي أن تقتربي منها فقط، سأكسر رجليك، فأنت عندها ستتذكرين المدرسة بلاوعي...

التزمت الصمت، وكنت أكتم صوتي حتى لا أصرخ من الألم،

ثم جلست أنظر إلى لهيب النار في الموقد، وأبكي بصمت مخنوق، وأنا أمسح خفية على وبر قطتنا الرمادية، أما القطة، وبالمناسبة كانت تحس بي، عندما أبكي، وتقفز لتجلس فوق ركبتيَّ. وكنت أبكي ليس من شدة الألم، الذي ألحقته بي ضرباتها القاسية، ولكني كنت متعودة عليها منذ صغري، أما بكائي فقد كان الآن لأنني أدركت جيداً: أن خالتي لن تسمح لي بالذهاب إلى المدرسة...

وبعد يومين من هذا، أخذت الكلاب تنبح قلقة في طرقات القرية، حيث لم تكن هناك من شوارع نظامية، وترامت إلى الأسماع أصوات مختلفة، غلب عليها أصوات الأولاد العالية، واتضح بعد قليل، أن ديويشين سار من بيت إلى بيت، وهو يجمع الأولاد إلى المدرسة، وكانت بيوت القرية وملحقاتها، مبعثرة من دون تنظيم، ولا ترتيب، وكل قادم جديد إلى القرية، كان يبني بيتاً على مزاجه، أما ديويشين ومعه الأولاد من خلفه، فكانوا ينتقلون من بيت إلى بيت، والأولاد يضجون ويصرخون، من دون أن يطرقوا على الأبواب.

أما بيتنا، فقد كان في نهاية القرية، وعملت مع خالتي ساعتها بجرش الذرة في جرن خشبي كبير، أما عمي فقد قام بالكشف عن حبوب القمح، التي دفنها في الأرض في جورة عميقة إلى جانب الملحق: كان يجهز نفسه لنقل القمح خفية إلى السوق، ونحن، كضاربي المطارق، كنا نهوي بالمدقات الثقيلة، وكنت أسرق نظرة خفية، أتابع فيها، أين أصبح المعلم بجولته. كنت أخاف من أنه لن يصل إلى بيتنا، وعلى الرغم من أنني كنت أعرف أن خالتي لن تسمح لي بالذهاب إلى المدرسة، كنت أرغب جداً، بأن يحضر ديويشين إلى بيتنا، حتى يرى على الأقل، أين أعيش، وكنت أصلي في نفسي للمعلم، وأتمنى أن يتابع مسيرته حتى يصل إلى بيتنا.

- قام المعلم ديويشين بلطف بإلقاء التحية على الخالة، وهو يقود تلاميذ المستقبل خلفه، قائلاً بهدوء:

- السلام عليكم، يا صاحبة المنزل، فليساعدكم الله في عملكم! ونحن بعددنا الكبير هذا، سوف نساعدكم بكل ما نقدر.

أجابت الخالة على طريقتها، إذ قالت شيئاً غير مفهوم، أما عمي فلم يظهر رأسه من الحفرة نهائياً.

إن هذا التصرف لم يثر استغراب ديويشين، فجلس على بقية جذع شجرة قُطعت منذ زمن بعيد، كانت في وسط ساحة المنزل، وأخرج قلم رصاص وورقة، وأخذ يكتب بكل جدية:

- اليوم سوف نبدأ بالتعليم في المدرسة، فكم سنة عمر ابنتك يا خالة؟

لم تجب الخالة، ولا بكلمة، ووضعت المدقة بحنق في الجرن، وكما بدا عليها، لم ترغب بالحديث مع المعلم، أما أنا، فلقد انكمشت على نفسي؛ فماذا سيكون الآن؟ نظر ديويشين نحوي وابتسم، وكما في المرة السابقة، لقد عم الدفء قلبي بحرارة.

- كم عمرك يا ألطاناي؟ - سأل المعلم.

لم أجرؤ على الإجابة.

- ولماذا يلزمك هذا، ومن أنت حتى تدقق بهذا الشكل! - أجابت الخالة بغضب وحنق شديدين. - لا يوجد لديها وقت للدراسة، وليس لأمثالها اليتامى أن يدرسوا، فيوجد أطفال يعيشون في كنف آبائهم وأمهاتهم، ولا يذهبون للمدرسة. فها أنت قد جمعت حشداً كبيراً، وما عليك إلا أن تسوقهم إلى المدرسة، وهنا لا يوجد لك عمل.

نهض ديويشين من مكانه، وقال بصوت شديد:

- هل تستوعبين معنى ما تقولين! وهل هي مخطئة في يتمها ومعاناتها بلا أهل؟ أو يوجد قانون ينص على منع اليتامى من التعلم؟

- لا يهمني الأمر بالنسبة لقوانينك، فعندي قوانيني الخاصة، وهل قدمت إلى هنا، حتى تعلمني ما عليَّ أن أعمل!

- القوانين لدينا واحدة، وإذا كانت هذه البنت لا تلزمكم، فهي ضرورية لنا، وضرورية للسلطة السوفييتية أيضاً، وإذا وقفتم ضدنا، فإننا سنعلمكم ما يعجبكم!

- من أين جئت إلينا أيها القائد! - وضعت الخالة يدها على خصرها مهددة وساخرة، - فمن حسب رأيك، صاحب الحق بتقرير مستقبلها؟ أنا أطعمها وأسقيها، أو أنت يا ابن المتشرد، وأنت جوال متسكع كذلك؟!

فمن يعرف، بماذا سينتهي هذا الحديث، لولا أنه، وفي هذه اللحظة ظهر من الجورة العم، وهو عار حتى الحزام، ولم يكن باستطاعته أن يصبر عندما تدخلت زوجته في أمر لا يعنيها، وقد تناست كلياً، أنه يوجد رجل في البيت، وهو زوجها، وصاحب البيت، وكان سابقاً يضربها بقوة، ويعاقبها على مثل هذا التصرف، وفي هذه المرة استفزت أعصابه حتى النهاية، إلا أنه صبر لوجود إنسان غريب مع الأطفال، وقال مهدداً من الحفرة:

- إيه، أيتها المرأة! من أي وقت أصبحت أنت الرئيسة في البيت، ومن أي وقت أصبحتِ تقررين بنفسك؟ توقفي عن الثرثرة، وتابعي عملكِ، وإلا قدمت إليك، أما أنت يا ابن تاشنان بيك، خذ البنت، فإذا أردت أن تعلمها - علمها، وإذا أردت أن تشويها - اشويها، وكل ما أريده منك، أن تغرب عن وجهي الآن.

قالت الخالة بصوت عالٍ:

- آه، إذن هكذا، هي سوف تذهب لتتسكع في المدارس، ومن سيعمل في البيت؟ وهل أنا مجبرة على هذا وحدي؟!

فأجاب عمي بصوت جهوري صارم:

- لقد قلت كلمتي وانتهى الأمر!

«لكل شيء سيئ، يوجد جانب إيجابي». وهكذا حالفني الحظ، وذهبت لأول مرة إلى المدرسة، ومنذ ذلك اليوم، كان يجمعنا ديويشين من بيوتنا، حسب النظام، وعندما قدمنا أول مرة إلى المدرسة، أجلسنا المعلم على القش المفروش فوق الأرض، وأعطى لكل منا دفتراً، وقلم رصاص، ولوح خشب صغير، وقال:

- على كل منكم ان يضع لوح الخشب على ركبتيه، حتى تتمكنوا من الكتابة بصورة مريحة، - شرح ديويشين، ثم أشار إلى صورة إنسان روسي ملصقة على الجدار، إذ قال:

- هذا هو لينين.

لقد ارتسمت هذه اللوحة في مخيلتي إلى الأبد. فيما بعد لم أعد أرى مثلها. وفي نفسي أن أُسميه «صاحب ديويشين»، وفي تلك اللوحة، كان لينين في سترة عسكرية واسعة، وكان وجهه مدبباً نحيفاً، وقد نما شعر ذقنه، بينما كانت يده المصابة بطلق ناري معلقة على رقبته، وعيناه الذكيتان، كانتا تنظران باهتمام ودقة وهدوء، بينما كانت نظرته الهادئة والدافئة تقول لنا: «لو علمتم أيها الأطفال، أي مستقبل زاهر ينتظركم!» وبدا لي في هذه اللحظة الهادئة، أنه حقاً قد كان يفكر بمستقبلي.

ومن خلال تاريخ حياة ديويشين، إن هذه اللوحة كانت منذ أمد بعيد لديه، وهي مطبوعة على ورق إعلانات عادي، - لقد بان القدم عليها، إذ تقصف الورق في بعض الأماكن وتلفت الزوايا عليها. وبكلمة

كانت هذه اللوحة، هي الشيء الوحيد، الذي يدل على السلطة السوفييتية في المدرسة، ولا شيء غيرها فوق هذه الجدران الأربعة.

- إني سوف أعلمكم أيها الأولاد القراءة والحساب، وسأريكم كيف تكتب الحروف والأرقام، - قال ديويشين، - وسوف أعلمكم كل شيء أعرفه...

وفعلاً، لقد علمنا كل شيء كان يعرفه، وكان ذلك بكل هدوء وصبر حكيم، وكان ينحني فوق كل تلميذ على حدة، وهو يعلمه، كيف من الممكن أن يمسك القلم، ثم كان يشرح لنا باهتمام الكلمات غير المفهومة لنا.

وها أنا، أفكر الآن بحقيقة هذا الأمر، وجوهر هذا الإنسان، واستغرب استغراباً مدهشاً: كيف تمكن هذا الشاب المتعلم قليلاً، وهو يقرأ بصعوبة، ويلفظ الكلمات حسب مقاطعها المكونة منها، ولا يملك في حوزته كتاباً مدرسياً واحداً، وحتى لو كتاب لتعليم الأحرف وكتابتها، الذي يخصص للمبتدئين في الصف الأول، والذي يزيد من احترامي وتقديري له، كيف أخذ على مسؤوليته هذا العمل العظيم والكبير، وهل هي مجرد طرفة، أن تعلم الأولاد الأميين وقد ورثوا الأمية عن آبائهم وأجدادهم لسبعة أجيال وأكثر من التاريخ، وبالطبع، ومن دون شك، لم يملك ديويشين أي تصور عن برنامج ومنهاج التعليم. وبالأصح، إن ديويشين لم يكن يملك تصوراً عن حقيقة وجود مثل هذه القضايا التي تساعد في مجال التعليم.

لقد كان ديويشين يعلمنا كما يستطيع، وكما كان يرى هذا ضرورياً، وما يسمى في الحديث، حسب الحدس، أو بالسليقة، وإنني على ثقة، بأن هذا الاندفاع والحماسة، وكل ما كان يعمله من أجل الأطفال لم يذهب بلا نتيجة.

ومن الممكن أنه، وبدون أن يملك الوسائل والكتب، قد قام بتضحية ليس لها مثيل، نعم أنها تضحية حقيقية، لأنه في تلك الأيام، بالنسبة إلينا، نحن الأطفال القرغيز، لم نذهب خارج حدود قريتنا البسيطة، ففي المدرسة إذا كان بالإمكان تسميتها هكذا، كانت لوحة موزاييك مع شقوق منفرجة، والتي من خلالها كان بالإمكان رؤية قمم الجبال المغطاة بالثلوج، وفجأة انفتح أمامنا عالم جديد لم نسمع به سابقاً، ولم نعرف حقيقته ولا أطره.

حقاً، إننا علمنا آنذاك، أن مدينة موسكو، حيث يعيش لينين، هي أكبر بعدة مرات من أولي آتا، وحتى أكبر من طشقند، وأنه من الممكن أن تسبح البواخر وتقطع هذه البحار، علماً أن البواخر كبيرة كالجبال، ولقد علمنا أن الكيروسين الذي يأتون به من السوق، يستخرجونه من تحت الأرض، وكنا نحن نثق، وبكل تأكيد عندما يعيش الشعب بصورة أفضل، سوف تنتقل مدرستنا إلى بناية كبيرة وبيضاء وذات نوافذ عالية وكبيرة، وأن التلاميذ سيجلسون على كراسي وخلف طاولات.

وهكذا، قد أنهينا، وبشكل من الأشكال، الأحرف الأبجدية، ولم نكن نعرف كتابه كلمة «ماما»، «بابا»، لقد كتبنا على الورقة: «لينين». وتكوّن لدينا قاموس الكلمات السياسية، وأصبحنا نعرف ما يقصد بكلمة «باي»، «بتراك»، «سوفييتي». وبعد سنة، وعدنا ديويشين، أن يعلمنا كيف نكتب كلمة «الثورة».

ونحن نستمع لأحاديث ديويشين، كنا نعيش تلك الأيام، التي عاشها، ساعة بساعة، وكنا نفكر معه، ونقاتل إلى جانبه معنوياً ضد أعداء الثورة في كافة الجبهات ضد البيض، وكان يحدثنا عن لينين، بكل أحاسيسه وعواطفه، وكأننا نراه أمامنا بأعيننا،

والكثير مما كان يتحدث لنا به، أذكره الآن، وأدرك معناه، الذي تجسد في جوهر الشعب وانعكس من خلال أحكام الشعب عن القائد العظيم، وبالنسبة لنا نحن تلاميذ ديويشين، كنا قد تصورنا هذا، ولمسناه بكل أحاسيسنا، وما يحتويه من حقائق، وتأكدنا منه، كما كنا نتأكد بأن الحليب أبيض اللون.

وذات يوم، ومن دون خلفية فكرية، سألناه:

- أيها المعلم، هل صافحتم لينين، يداً بيد؟

وعند ذلك، أخذ المعلم يهز برأسه نافياً كلياً:

- كلا، يا أولاد، لم أر لينين مطلقاً.

كان يشعر بنفسه أنه أخطأ بحقنا، فتنهد - أخذ يشعر بحرج أمامنا.

في نهاية كل شهر، كان ديويشين يتوجه لقضاء أعمال خاصة به، أو لقضاء استراحة، كان يذهب هناك مشياً على الأقدام، ويعود بعد يومين، أو ثلاثة أيام.

كنا نشتاق لمعلمنا اشتياقاً كبيراً خلال غيابه لمدة ثلاثة أيام، وكأنه بالنسبة لي أخ وحيد، وحتى لو كان أخي، لما انتظرته بهذا الشكل فاقدةً لكل صبر ممكن، وكانت عودة ديويشين بمثابة عودة الروح إلينا، كنت أخرج، وحتى لا تلاحظ خالتي إلى مكان مرتفع بالقرب من ساحة بيتنا، وأرقب طويلاً السهول البعيدة، علها تُظهر في لحظة ما شخصية ديويشين سائراً على الطريق، وعندما يظهر المعلم وهو يحمل القمطر على ظهره، وأرى ابتسامته، التي تبعث الدفء في قلبي، وأسمع بعض الكلمات التي تزيدني علماً، أشعر بالراحة والاطمئنان.

كنت أنا أكبر تلاميذ ديويشين عمراً، وربما لهذا السبب،

كنت أدرس أحسن من الآخرين، وربما ليس لهذا السبب وحده، فبالنسبة إليّ كل كلمة يقولها المعلم، وكل حرف يلفظه ويعلمنا إياه - كل هذا كان شيئاً مقدساً، ولم يكن عندي في الدنيا شيء مقدس، أكثر من هذا، وأن أستوعب كل ما يقوله لنا. لقد حافظت على الدفتر الذي أعطاني إياه، ولهذا كنت أرسم الأحرف بمنجل حاد على الأرض، وبالفحم على المدافن والجدران، كما أخطط الكلمات على الثلج، وعلى تراب الطريق. ولم يكن بالنسبة إليّ أحد في الدنيا أذكى وأكثر علماً من ديويشين.

اقتربنا من فصل الشتاء.

حتى الثلج الأول، كنا نذهب إلى المدرسة عبر المخاضة القريبة من النهر ذي الحجارة الكثيرة، وكان خريرها يرتفع في صخب عال، وبعد فترة لم يعد بالإمكان تجاوز المخاضة - إذ أصبحت المياه الجليدية تؤذي أرجلنا، وكان يتعذب الأطفال الصغار كثيراً، حتى أنهم كانوا يذرفون الدموع من شدة البرد، وعند ذلك أخذ ديويشين يحملهم على يديه أحياناً، وعلى ظهره عندما يكون الأولاد أثقل وزناً، وأحياناً يحمل اثنين معاً - واحداً على الظهر، والآخر على يديه، وهكذا حتى ينقل الجميع.

أما الآن، وأنا أتذكر كل هذا، لا أصدق ذاكرتي، أن كل هذا، كان هكذا، ولكن كل شيء كان حسب التخلف والأمية، أو بسبب ضعف الوعي عند البشر، كانوا يسخرون من ديويشين، وخاصة الأغنياء، الذين يقضون الشتاء في الجبال، وكانوا يحضرون إلى هنا لطحن القمح في المطحنة، وصادف أن نلتقي معهم عند المخاضة، إذ كانوا يحدقون بأعينهم نحو المعلم ديويشين، وعندما يمرون من جانبنا على خيولهم الحمراء القوية، وهم يرتدون الفراء

الفاخرة من جلود الأغنام الممتازة، قال واحد منهم وهو يقهقه ضاحكاً، وينبه جاره بيده:

- انظر، انظر يحمل واحداً على ظهره، وآخر على يديه! وعند ذلك، ضرب خيال آخر حصانه الذي شخر بقوة تحت وقع السوط، وأضاف:

- إيه، لتنشق الأرض وتبتلعني، فلم أكن أعرف شيئاً من الدنيا سابقاً، كان عليَّ أن أتزوج زوجة ثانية!

وهكذا، تجاوزنا هؤلاء الأغنياء، وهم يقذفون الماء والوحل من حوافر خيولهم الجامحة علينا، فتبتل ثيابنا، ويغادرون مقهقهين ساخرين.

كم كانت تشتعل رغبتي آنذاك، أن ألحق بهؤلاء البشر الأغبياء، وأن أمسك خيولهم من مقاودها، وأصرخ بهم صوتاً يصفع وجوههم البليدة: «إياكم أن تتفوهوا بهذا الكلام الحقير عن معلمنا! فأنتم سفهاء، وهياكل بشرية غبية!».

ولكن مَن مِن هؤلاء سينتبه إلى صوت فتاة صغيرة؟ وبقي لي أن أجترع هذه الإهانة، أما ديويشين فإنه لم يسمع هذا الشخص الذي حاول إهانته، وكان منشغلاً بنقل الأطفال، ويصادف أن يحدث أحد ما بطرفة، ويجبرنا على الضحك، وننسى كل شيء.

ومهما اجتهد ديويشين، لم يتمكن من الحصول على الأخشاب اللازمة لإقامة هذا الجسر فوق النهر، وذات يوم، كنا نغادر المدرسة، وقام المعلم بدوره، بمرافقة الأطفال كالعادة، وبقيت مع ديويشين على الضفة، وحاولنا أن نقوم بوضع حجارة وأعشاب مع التربة كطريق ضيق، حتى يدوس عليه الأولاد من دون أن يبللوا أرجلهم.

وإذا تكلمنا بالحق والعدالة، كان من الضروري على السكان

في قريتنا أن يجتمعوا ويقوموا بوضع ثلاث أو أربع خشبات فوق النهر، وخلال فترة قصيرة ستجد الجسر جاهزاً للمارة، وخاصة للتلاميذ في المدرسة، ولكن الخطأ كان، وما يزال يكمن في درجة الوعي، ففي تلك الأيام، كان الجهل يسيطر على الناس، ولم يعطوا العلم أية أهمية كانت، وكانوا يحسبون ديويشين إنساناً ساذجاً في أحسن الحالات، وخاصة أنه يشغل نفسه بهؤلاء الأولاد، لأنه لا يجد عملاً يعمل به. إذا أردت أن تُعلم - فعلمهم، وإذا لا - اطردهم جميعاً إلى بيوتهم. أما هم، فكانوا يقطعون النهر على صهوات خيولهم، ولا يهمهم نقل أولادهم عبر النهر، وكان بالطبع على شعبنا أن يفكر جدياً: فمن أجل ماذا يعمل هذا الشاب الذي هو ليس أسوأ من غيره من الشبان، ومن أجل ماذا يتحمل الصعوبات والعوز والحرمان، ويتحمل السخرية، والإهانة، وهو يعلم أولادهم، وبكل تصميم وإرادة، وعلى أحسن شكل.

في ذلك اليوم، الذي وضعنا فيه الحجارة في مسار المسيل، كانت الثلوج تغطي الأرض، وكانت المياه باردةً للغاية، ولا يطيق الإنسان أن يضع يده فيها، فكيف رجليه، ولا أتصور كيف كان يتحمل ديويشين هذا، فهو كان ينقل الأطفال حافياً، ومن دون توقف. لقد حاولت أن أقطع الماء في بادئ الأمر، فشعرت وكأن عقلي يطير من شدة البرد في قدميَّ، وفي وسط النهر، قذفتني المياه، فوقعت، ولم أقدر على الصراخ، وتخبطت في الماء، وهويت، وعندما رآني ديويشين، قذف الحجر من يديه، وقفز نحوي، والتقطني ثم أخرجني من الماء، وأجلسني على معطفه، وأخذ يفرك رجليّ الزرقاوين، ويأخذ يديّ، ويضعهما بين كفيه، ويتنفس بقوة حتى يبعث الدفء فيهما بعد أن تجمدتا، وتابع ينفخ تارة، ويضعهما أمام فمه ويحاول بعث الحرارة فيهما تارة أخرى، حتى عدت إلى وضع مقبول، فقال لي:

- اجلسي هنا، يا ألطاناي، ولا تتصرفي بشيء، وحاولي أن تدفئي نفسك هكذا، وأخذ ينفخ على يديّ، أما أنا، فسأقوم بكل شيء لنقل الأطفال عبر النهر.

وعندما جهز الممر كما يجب، شد الجزمة على رجليه، ونظر نحوي وأنا أرتجف بشدة، وابتسم، كعادته:

- كيف وضع المعاونة؟ هل حل بكِ الدفء، ضعي المعطف عليك هكذا! - ثم التزم الصمت قليلاً، وسأل:

- هذه أنتِ، يا ألطاناي، قد أبقيت الجلة عند باب المدرسة؟

- نعم، - أجبت أنا بهدوء.

ابتسم ابتسامة خفيفة، وكأنه يقول في نفسه: «هكذا فكرت أنا!» إنني أذكر كيف، وفي تلك اللحظة انبعث في وجنتي دفء شعلة: هذا يعني، أن المعلم عرف، ولم ينس هذا، على الرغم من أنها بدت حادثة عابرة. لقد كنت سعيدة، حتى حلقت فوق السماء السابعة بمشاعري، وأدرك ديويشين سر سعادتي.

- نعم، أنتِ جدول حياتي الوضاء، - قال هو، ومرر يده بحنان على رأسي. - وعندك الموهبة الجيدة... إيه، كم كان رائعاً لو تمكنت من إرسالك للدراسة في مدينة كبيرة، إنني متأكد، من أنك ستصبحين إنسانةً عظيمة، وذات شأن!

سار ديويشين عدة خطوات منفصلة مع بعض التوقعات، نحو ضفة النهر.

ها هو الآن يقف أمام ناظري، كما وقف آنذاك، عند ضفة النهر الحجري الصخري الوعر بكل ضجيجه وصخبه، وهو يشبك يديه خلف قذاله، وينظر إلى الأفق البعيد بطموح وآمال كبيرة، وبعينين صافيتين نحو الغيوم البيض التي تدفع بها الرياح فوق الجبال.

بماذا كان يفكر آنذاك؟ ربما كان هذا صحيحاً، أنه كان على استعداد أن يرسلني للدراسة في مدينة كبيرة، وهل كنت حقاً في أحلامه؟ أما أنا ففكرت في تلك الدقيقة، وأنا ألف نفسي بمعطفه: «لو كان المعلم شقيقي الفعلي! ولو كان ذلك، لتمكنت أن أقفز من مكاني وأتعلق برقبته وأضمه بكلتا يديّ، وأنا أطبق عينيَّ سعيدة، وأهمس في أذنه أجمل كلمات في الدنيا! آه، يا إلهي، افعل هكذا، حتى يكون أخي، بكل معنى الكلمة!».

من المحتمل، أننا جميعاً - التلاميذ، قد أحببنا معلمنا لإنسانيته الشفافة معنا، وعلى أفكاره الخيرة، وأحلامه وآماله في أن يصنع لنا مستقبلاً جيداً. كل هذا، على الرغم من أننا ما زلنا أطفالاً، وأعتقد الآن، أننا كنا نثق به ونفهم هذا، وإلا، ما الذي كان يجبرنا على أن نذهب كل يوم إلى هذه المدرسة البعيدة، ونصعد إلى التل لاهثين من التعب والبرد والإعياء متعثرين بالوحل والكثبان الثلجية؟ إننا كنا نذهب إلى المدرسة بسعادة، ولم يجبرنا أحد على الذهاب إلى هناك، وأن نعاني من البرد في هذا الإسطبل البارد، حيث كان السقام الأسود على وجوهنا المتجمدة الشاحبة، وعلى أيدينا وثيابنا، وكنا نتفق بين بعضنا، أن يقف كل منا، وحسب الدور، وفي المكان المناسب، وفي الوقت نفسه بقي الآخرون جالسين في أماكنهم، وهم يستمعون لمعلمهم ديويشين.

في يوم من أيام الصقيع هذه - وكان يشبه، كما هو الجو الآن، كان ذلك في نهاية كانون الثاني عندما قام ديويشين بجمعنا كما كان يفعل، ولف كل بيوت القرية، وقادنا إلى المدرسة. كان يسير صامتاً، متجهماً، بينما أخذ حاجباه وضعاً متغيراً عن ذي قبل، حتى أصبحا فوق عينيه كجناحي عُقاب فضي، أما وجهه فقد بدا

كصفيح من الحديد، وبدا عابساً كأنه قُد من فولاذ مُدرفل، ولم نر معلمنا في يوم من الأيام هكذا، وعندما وجدناه على هذا الحال، التزم كل منا الصمت: لقد شعرنا أن هناك شيئاً غير طبيعي.

عندما سرنا، وجدنا في الطرقات كتلاً ثلجية كبيرة، وعادةً كان ديويشين يفتح الطريق، وأسير أنا خلفه، وخلفي يسير الآخرون، وفي هذه المرة، وقبل وصولنا إلى التل، كان قد سقط الكثير من الثلوج، فسار ديويشين في المقدمة، وعندما ينظر الإنسان إلى إنسان آخر يمشي أمامه، يدرك ويتفهم الحالة النفسية، التي يعاني منها، وماذا يجري في داخله روحياً، ووقتها كان واضحاً أن معلمنا يعاني من مصيبة كبيرة ألمت به، لقد سار منكساً رأسه من عظم المصيبة، وينقل رجليه بصعوبة، وأذكر حتى الوقت الحاضر تلك الكدمات الزرقاء المخيفة تحت عينيه، إذ تعاقب اللون الأسود بعد الأزرق، ثم الأصفر وبالعكس، صعدنا جميعاً واحداً تلو الأخر إلى التل. - وتحت المعطف الأسود، كان يتكور ظهر ديويشين، ومن الأعلى وعند الانحدار، تكون من فوقه سنام كظهر الجمل، والثلج الأبيض يتزايد، وأخذ الريح يقذف الثلج الناعم عن أعلى ظهره، وفي الأعالي - في السماء البيضاء، كانت غيمة وحيدة تسبح في الفضاء تزداد سواداً.

وعندما وصلنا، لم يبادر ديويشين إلى إشعال المدفأة كعادته.

- قفوا جميعاً، - أمرنا بصوت رزين.

وقفنا جميعاً في أماكننا، ثم قال بهدوء، وخلع القبعة عن رأسه من باب الاحترام لقائد الثورة:

اخلعوا القبعات عن رؤوسكم.

نفذنا بهدوء، وباتت رؤوسنا عارية. لم نفهم شيئاً، ولماذا يأمرنا بهذا، وعند ذلك قال المعلم بصوت أبح، متهدج وحزين.

- لقد مات لينين، فالناس في كل أنحاء العالم يقفون الآن لحظات حداد، وابقوا أنتم واقفين في أمكنتكم بلا حراك، وانظروا إلى اللوحة هناك، ولنذكر هذا اليوم إلى الأبد.

عمّ الصمت والهدوء مدرستنا، وكأنها قد دفنت كلياً تحت العاصفة القاتلة، وكان مسموعاً صفير الرياح التي تخترق الشقوق بعسر، وكان مسموعاً وقع قطع الثلج الجاف فوق القش اليابس.

في تلك الساعة عندما خرست المدن التي لا تعرف النوم ولا الهدوء عادة، وعندما توقفت المصانع، التي تهز الأرض وتقض مضجعها ساعات طويلة، وهي تحركها كل على طريقته، وجمدت في أماكن وجودها القطارات، وعلى السكك الحديدية البعيدة في أرجاء روسيا، وعندما أعلن معظم العالم الحداد، - وقفنا نحن التلاميذ الصغار في حداد نابع من قلوبنا، لذلك الإنسان الذي ينظر إلينا من اللوحة متمنياً لنا مستقبلاً زاخراً، كيف لا، ونحن جزء لا يتجزأ من الشعب الكبير، ووقفنا حابسين أنفاسنا في حرس الشرف للحداد مع معلمنا، هناك في تلك الزاوية المتجمدة من البرد، والمسماة بالمدرسة.

من ذلك المكان، ودعنا لينين وقد حبسنا أنفاسنا معنوياً، لأننا أقرب الناس له، كما حزنا أكثر من أي إنسان لهذه المأساة، وما زال لينيننا في معطفه العسكري الواسع ينظر إلينا، ويده المصابة، والمعلقة على ربطة إلى عنقه، من تلك اللوحة القريبة لقلوبنا فوق الجدار، كأنه يقول لنا بنظرته الصادقة والنقية: «لو علمتم أيها الأطفال الأحباء، أي مستقبل رائع ينتظركم! ولقد بدا لي في تلك الدقيقة الهادئة، أنه في واقع الأمر يفكر بمستقبلي».

ثم مسح ديويشين عينيه بكم معطفه وقال:

- إنـني ذاهـب اليـوم إلى مركـز المنطقـة، لأنـتظم في صـفوف الحزب، وسأعود بعد ثلاثة أيام...

تلك الأيام الثلاثة، بدت لي طويلة جداً، وبقيت كعلامـة متميـزة في حياتي، بل كانت أكثر قسوة وعذاباً ومرارة من أية أيـام أخـرى في تقـويم الأرض الـتي عشـتها في حيـاتي، وكـأن قـوى عاتيـة وعملاقـة في الطبيعـة، حاولـت جاهـدة أن تشـغل مكـان هـذا الإنسـان العظـيم علـى الأرض الـذي رحـل جسـدياً مـن عالمنـا؛ وكانـت الريـاح تعصـف مـن دون توقـف، وغضـبت، واشـتدت حنقـاً العواصـف الثلجيـة، وأخـذ الصـقيع يصـفر كنشـر الحديـد... ولم تجـد لنفسـها مكانـاً ككـل الكـوارث غير المتوقعة؛ كانت تعصف وتعلو وترتطم بقسوة على الأرض...

هـدأت القريـة، الـتي نعـيش فيهـا، وخرسـت العاصـفة عنـد سـفح الجبـل، وكـأن الغيـوم هبطـت وغطـت بضـبابية مظلمـة بيـوت القريـة وطرقاتها الضيقة، ومن المداخن، كان يرتفع الدخان منساباً. أما النـاس فلم يخرجوا من بيوتهم. وفي هذه الأيام ازداد جوح الـذئاب، وبلغـت الجـرأة، درجـة الوقاحـة الحيوانيـة، حتـى أخـذت تظهـر في النهـارات علـى الطـرق العامـة، وفي الليـالي كانـت تعـود الـذئاب لتقلق بعوائهـا راحـة الأهـالي، وخاصة الأطفال، وتستمر بجوحها حتى مطلع الفجر، وكان يبدو أنهـا تجوح جوعاً، ومن البرد المؤلم أيضاً عندما تكون البطون خاوية.

لقـد خفـت وقلقـت علـى معلمنـا، ولا أعـرف لأيـة أسـباب: كيـف كـان وضعه هنـاك، في مثل هـذا البرد القارس، وليس لديه فـروة دافئـة، وهو في معطفه، الذي لا يدفئ. وفي ذلك اليوم، الذي كـان سيعود فيـه ديويشـين، شـعرت كـأنني فقـدت رأسـي عـن كتفـيّ، وأحسسـت مـن خـلال قلـبي بشـيء سـيئ حـل بـه، وكنـت أركـض خارجـة مـن البيـت، وأصل إلى مرتفع صغير على حافة القرية، وأتفحص السهول الفسيحة،

المغطاة بالثلوج علني أرى شيئاً ما يدل على قدوم ديويشين في الطريق الخالي من البشر؛ حبذا لو شاهدتُ المعلم بأسرع ما يمكن! وهل يا ترى، سيأتي اليوم؟ ولكن لم أرَ أياً من الأرواح البشرية.

«أين أنت، يا معلمنا؟ أرجوك أن تعود بسرعة، ولا تبقى حتى المساء، إننا نحن التلاميذ ننتظرك، فهل تسمعني، أيها المعلم على الطريق؟ ولكن ليس من أحد يجيب».

أما السهول، فلم تستجب لتضرعاتي ورجائي، وضاع ندائي بلا جواب، وهنا أخذت بالبكاء.

ولقد ضجرت خالتي من تصرفاتي، وخروجي من البيت، فقالت:

- هل ستعطين الباب شيئاً من الهدوء؟ اجلسي في مكانك، وقومي بغزل الصوف، لقد برد الأولاد، وأنتِ تفتحين الباب، عسى أن تتجرئي، وتقومي ثانية.

- قالت الخالة، وهي تهددني برفع إصبعها، وبلغة ملؤها الحقد والكراهية، ولم تعد تسمح لي بالخروج من البيت نهائياً.

غابت الشمس وعمت الظلمة، أما أنا فلم أعلم، هل عاد المعلم أم لا، وجلست وأنا أعاني قلقلة، لا أجد لنفسي مكاناً أستقر فيه، وحاولت أن أطمئن نفسي معنوياً، أن ديويشين قد أصبح في القرية، ولم يحدث سابقاً، أنه أخلّ ولو مرة واحدة في موعده، وفي اليوم المحدد لعودته، تصورت أنه كان مريضاً، وكان عليه أن يسير ببطء، وتزداد العواصف الثلجية، ويتوه عن الطريق ليلاً في الحقول، وأن العمل عنده لم يكن ناجحاً، ولم يوفق في مهمته، كل هذا القلق لم يسعف يديّ على غزل الصوف، وكان غالباً، ما تنقطع تيلة الصوف، مما يغيض خالتي للغاية.

- ماذا حدث لك اليوم؟ وهل أصبحت يداك خشبتين يا ترى؟

- أخذت ترفع صوتها، أكثر وأكثر حانقة، وهي تنظر إليَّ بحقد، ثم طفح الكيل عندها، ولم تعد قادرة على الصبر: - آه منك، فالهلاك لك قليل! اغربي عن وجهي، واحملي إلى العجوز سايكال هذا الكيس، فهو لهم.

كدت أطير في الفضاء من الفرح، فإن ديويشين قد عاش عند العجوز سايكال، وكانت هي وزوجها كارتانباي يقربونني من جهة أمي الراحلة، وكنت غالباً ما أذهب إليهما، وفي بعض الأحيان أبقى عندهم طوال النهار، وأنام في بيتهم، فهل تذكرت خالتي أقاربي، أو أهداها اللّه أن تتصرف هكذا، فأعطتني الكيس، وأضافت قائلة:

- لقد مللت، وضجرت منك لحد الموت كطحين الشوفان في سنة الجوع، اذهبي، وإذا سمحوا لك الكهلة، فنامي عندهم. اغربي عن عيني بسرعة أيتها...

خرجتُ إلى ساحة البيت، وكان الهواء قوياً، ويشكل باروماً يدور كالمغزل، وهو ينشر الثلج الجاف على الوجه الدافئ. وضعت الكيس تحت إبطي، وأخذت أركض بسرعة، لأقطع المسافة حتى آخر القرية بدقائق، وكان على الطريق أثر لحصانه، قد طبع حوافره بشدة على الثلج، وفي رأسي لم تكن إلا مسألة واحدة تعذبني: «هل عاد، هل عاد المعلم؟».

وصلت إلى بيت الجدة، ولكنه لم يكن موجوداً. لقد خافت العجوز سايكال جداً، ولقد تعبت على الطريق، وبالكاد أصبحت أتنفس.

- ماذا حل بكِ؟ لماذا ركضتِ هكذا، هل حصلت مصيبة ما؟

- كلا، ركضتُ ببساطة، هذا الكيس لكم، هل من الممكن أن أنام عندكم اليوم؟

- بالطبع ممكن، فأنا عاتبة عليك، لقد نسيت جدتك، فأنت من بداية الخريف، لم تأتِ إليَّ ولا مرة، اجلسي عند الموقد، ودفئي نفسك.

- وأنت، يا جدة، ضعي لحماً في الطنجرة وجهزي عشاءً لحفيدتك، وربما ديويشين سيأتي خلال ساعة، - قال كارتانباي، الذي جلس إلى جانب النافذة، يخيط جزمات اللبد العتيقة، - لقد تأخر، وحان الوقت أن يكون في البيت، لا بأس، الآن سيحضر قبل أن تعم الظلمة الحالكة، فالحصان حصاننا، ويعرف طريقه إلى البيت.

وبسرعة حل الليل خلف النافذة. أخذ قلبي يخفق بلا انتظام، وكأنه يقف حارساً في مكان خطر، وتوترت أعصابي عندما أخذت الكلاب تنبح، أو جاء صوت بشر من بعيد، ولكن ديويشين لم يحضر! وشيء جيد، أن العجوز سايكال، كانت تملأ الوقت بالأحاديث، والحكايا.

هكذا، انتظرنا ديويشين من ساعة لأخرى، وعندما حلت ساعة منتصف الليل، تعب كارتانباي، وقال:

- جهزي لي يا عجوزتي الفراش، أريد أن أنام، إنه لن يحضر اليوم، لقد تأخر الوقت، ربما توجد عنده أعمال، ولم يسمح المسؤولون له بالعودة، ولو لم يكن الأمر كذلك، لكان قد عاد منذ وقت.

أخذ الكهل يجهز نفسه للنوم.

جهزت لي الجدة فراشاً في الزاوية خلف الموقد، ولكني لم أقدر على النوم، وكان الكهل يسعل كثيراً، ويتقلب في فراشه، ويهمس كلاماً ما، يشبه الصلوات والدعاء، ثم قال قلقاً:

- كيف وضع حصاني هناك؟ فالناس في الشتاء لا يعطون كمشة تبن مجاناً، أما بالنسبة للدخن، فلا تجده، حتى بالنقود.

خلد الكهل كارتانباي للنوم أخيراً، ولكن الريح قد زاد من صفيره، وأخذ يقلقني أكثر وأكثر، وخاصة عندما يحرك بعض الأشياء فوق السطح، كما يقرقع في قساطل المدخنة، وكان مسموعاً، وبوضوح شديد، كيف كانت حبيبات الثلج الجليدية، تتساقط على زجاج النوافذ والجدران.

ولم تهدئني كلمات الكهل كارتانباي، وبدا لي الأمر أن المعلم سيعود، وأنا أفكر به، وتصورت وضعه في الطريق، في وسط الثلوج السهبية، ولم أعلم، كيف جاء النوم لعينيّ، وهل غفوت لفترة يصعب تقديرها، وفجأة استيقظت، وثمة شيء أجبرني أن أرفع رأسي عن الوسادة، يا له من عواء كريه ومخيف في هزيع الليل الأخير، انتشر فوق السهوب القريبة من القرية، وتجمد هذا العواء في الهواء، عواء ذئب! وليس واحداً - كان عواء ذئاب عدة، وكانت تتجاوب مع بعضها من مختلف الجهات، وتقترب من القرية، وكان العواء الهجومي يتحد مع عواء طويل وقبيح، كان يأتي مع الريح، وينتشر في كل السهوب المحيطة، ويبتعد ويقترب حسب قوة الهواء، الذي ينقل هذه الأصوات، حتى بدت، وكأنها في بداية القرية، وهنا همست العجوز قائلةً:

- لقد استغلوا العاصفة الثلجية وهجموا على القرية.

أما الكهل فقد التزم الصمت. أصغى السمع، ثم نهض من فراشه مسرعاً.

- كلا، يا عجوز، الأمر ليس بهذه البساطة! إنهم يطاردون شخصاً أو حيواناً.

ها هم يحاصرونه، والعواء من كل الجهات، ويشتد شراسة؟ عسى اللّه أن ينقذ ديويشين. فهو ليس مخطئاً في شيء، يا له من شاب متهور. - أسرع الكهل كارتانباي يبحث عن فروته، وهو يصرخ: - هاتِ أيتها العجوز، هاتِ الضوء! أسرعي، من أجل اللّه، أسرعي!

نهضنا من الخوف، وأخذت العجوز تبحث عن المصباح، حتى وجدته وأنارته، خرس عواء الذئاب، وانقطع كلياً.

- لحقوا بالطريدة الملاعين، يا لهم من وحوش! - صرخ كارتانباي، وأخذ العصا، وعندما أصبح عند البوابة، سمع عواء الكلاب، وثمة شخص اقترب من النافذة، وهو يجر رجليه عبر الثلج وأخذ يدق الباب بقوة!

وعندما فتح الكهل الباب، دخلت إلى الغرفة غيمة سوداء باردة جداً على كل شخص، وعندما جلس، عرفنا فيه ديويشين. كان شاحب الوجه، بالكاد يلتقط أنفاسه، وهو يترنح لا حول له ولا قوة، دخل إلى الغرفة، إذ قام بخطوة عبر العتبة، وهو يتكئ على الجدار.

- سلاح! - هاتوا سلاح. - قال ديويشين بصعوبة.

ولكننا لم نفهم ماذا يريد، حتى شعرت وكأن غشاء قد غطى عيني، وسمعت كيف أخذ الكهل والعجوز يقرؤون الصلوات:

- غنمة سوداء - لك ضحية، غنمة بيضاء - لك ضحية! فليحفظك القديس الولي الصالح بوابيدين، هل هذا أنت يا ديويشين؟

- أعطوني سلاحاً، أعطوني سلاحاً! - كرر ديويشين.

- لا يوجد سلاح، ماذا بك، إلى أين؟

أمسك الكهلة ديويشين من كتفيه.

- أعطوني عصا!

ولكن الكهلة تابعا صلواتهما:

- لن تذهب إلى أي مكان، لا ، لن نسمح لك ما دمنا أحياء، من الأفضل أن تقتلنا ، وساعتها افعل ما تشاء!

شعرت فجأة بضعفٍ كبيرٍ يجتاحني، ووهناً قاتلاً في كل جسمي، واستلقيت في الفراش بلا حراك.

- لم أتمكن من الهروب، لحقوا بنا عند البيت هنا قريباً ، - التقط ديويشين أنفاسه، وأخذ يتكلم بصوت خافت وقذف بالسوط إلى الزاوية. - الحصان ما زال في الطريق، لقد أضنوه، ثم طاردتنا الذئاب، ووصلت معه إلى بداية القرية، وهناك سقط الحصان، فهاجمته الذئاب، وأخذت تنهش به من كل صوب.

- الحمد للّه على سلامتك، أما الحصان فغير مهم، المهم أنك أنت حي، ولو لم يجدوا الحصان أمامهم، لكانوا قد هجموا عليك، ولم يتركوك! الحمد للواقي المنقذ بوابيدين، أن كل شيء قد انتهى بالسلامة، اخلع الآن ثيابك، واجلس عند الموقد، تعال أساعدك على خلع جزمتك، تحرك كارتانباي بنشاط، - وأنت أيتها العجوز، ضعي على النار ما عندكِ من الأكل.

جلس الجميع حول الموقد، وتنفس كارتانباي الصعداء وارتاح نسبياً، ثم قال:

- المقدر شيء لا يُمحى، ولماذا مشيت في الليل؟

- كان الاجتماع طويلاً يا عم.

- هذا شيء جيد، ولكن كان من الممكن أن تنتظر حتى صباح يوم الغد، فليس من أحد يعاقبك، أو يجبرك على المسير في هذا الليل، وتحت الثلوج.

- لقد وعدت الأولاد بالحضور اليوم، - أجاب ديويشين، - غداً من الصباح سوف نتعلم.

- إيه، يا لك من مجنون! حتى نهض كارتانباي، وأخذ يلوح برأسه من الغضب -، اسمعي! أيتها العجوز: لقد وعد التلاميذ هؤلاء الصيصان! ولو كنت قد أصبحت في عالم الأموات، ما كانت الفائدة من وعدك؟ فهل أنت تفكر برأسك، ماذا تقول؟

- هذا واجبي وعملي يا عم، ولكن المسألة التي من الممكن أن تتكلموا عنها: عادة كنت أذهب مشياً على الأقدام، أما في هذه المرة لعب الشيطان بعقلي، أن أطلب الحصان منكم، وأعطيته للذئاب كفريسة...

- كلا، ليس الكلام عن هذا، أكلته الذئاب، فلا يؤسف عليك، فهو حصان، فليكن ضحية في العمر، مقدمه للآلهة عن روحك! - احتد كارتانباي في الحديث، - لقد كنت طوال عمري من دون حصان، والآن لم تعد تفرق الأمور بالنسبة لي، وإذا ما بقيت السلطة السوفييتية، سوف أعيش بلا هموم...

- تقول أيها الكهل، - قالت العجوز سايكال والدموع تنهمر من عينيها، - سنعيش بعد... خذ يا بني هذا الصحن الساخن، وهو شوربا طازجة...

صمت الجميع، وقبل دقيقة، حرك الكهل كارتانباي نار الجلة، وقال وهو يستغرق بالتفكير:

- أنظر إليك يا ديويشين، فأراك شاباً ليس غبياً، بل ذكيا - حسب رأيي - ولكن لا أفهم مطلقاً، من أجل ماذا تتعذب في هذه المدرسة مع الأولاد، ألا يبدو هذا مضحكاً؟ أم أنك لم تجد عملاً آخر؟ وإذا كان هذا الأخير هو السبب، فاذهب، واعمل عند أي كان من الملاكين راعياً للأغنام، وستكون أمورك على ما يرام، تجد الدفء، وتكون شبعاً...

- نعم، إنني أدرك هذا يا عم، فأنتم تريدون لي الخير، ولكن إن هؤلاء الأولاد البسطاء، إذا أصبحوا يتكلمون في المستقبل كما تقولون أنتم الآن، لماذا هذه المدرسة، وهي غير ضرورية، ولا يلزمنا التعليم، فإن السلطة السوفييتية لن تحقق شيئاً على الواقع العملي، وأنتم ترغبون في أن تستمر وتعيش طويلاً، ولذلك إن المدرسة بالنسبة إليّ، لا تشكل عبئاً يا عم، وحبذا لو كان بإمكاني أن أعلمهم أفضل، وهذا الشيء الوحيد، الذي أحلم به، وأن الراحل العظيم لينين كان يقول...

- نعم، بهذا الخصوص... - قاطع كارتانباي كلام ديويشين، وقال بعد دقيقة صمت: - أنت تجاهد وتكاد تقتل نفسك، فالدموع لا تعيد لينين! إيه لو كانت لدينا قوة فعالة على الأرض! وهل تفكر أن الآخرين، لا يحزنون، ويحدون؟.. فانظر إلى جانبي تحت الضلع: فهناك يدخن قلبي بدخان مر أسود، ولا أعلم إذا كان يتطابق هذا مع أفكارك السياسية، ولكن، وعلى الرغم من أن لينين ذو عقيدة دينية أخرى، فأنا خمس مرات في اليوم أصلي وأدعو له بالخير، وأحياناً أفكر يا ديويشين، مهما بكينا، وندبنا حظنا، فإن الدموع لا تعيده إلينا، فأنا هكذا أُفهم الأمور، على طريقة الرجال في كبرهم وشيخوختهم: فلينين بقي حياً في ضمير الشعب يا ديويشين، وسينتقل الحب والاحترام له مع الدم - من الآباء إلى الأبناء.

- شكراً لك، على هذه الكلمات القيمة يا عم، شكراً جزيلاً، وأنتم تفكرون بطريقة صحيحة، إنه ابتعد عنا جسدياً، ولكننا سنبني الحياة حسب أفكاره قدماً...

كنت أستمع تحت الغطاء إلى الحديث الدائر وبهذا، كأنني عدت وبالتدريج من بعيد إلى نفسي، وفي البداية كان كل شيء يشبه

الحلم، وأنا لم أقدر على إجبار نفسي أن أقتنع كلياً، بأن ديويشين قد عاد سليماً، ومن دون ضرر يذكر. وفيما بعد، وكسيل أبدي، سقط على روحي القلقة، كسعادة غير مفهومة، وغير محصورة في هذا السيل الساخن، بكيت بكاءً مراً، وربما لم يفرح أحد كما فرحت ساعتها، وفي هذه الدقيقة، لم يكن أي شيء موجوداً حولي، إلا هذه الجدران المصنوعة من الطوب الطيني، لا العواصف الثلجية الليلية في الساحة، ولا أسراب الذئاب، وهي تهاجم، وتنهش الحصان الوحيد لدى الجد كارتانباي، ولا أي شيء آخر! ولكن بقلبي، وعقلي، وبكل إحساساتي في الوجود، كنت أعيش وأدرك هذا الكون غير المحدود كماً ونوعاً بلا نهاية للسعادة التي عشتها آنذاك. وضعت الغطاء فوق رأسي، وأطبقت فمي، حتى لا يسمعني أحد كان، ولكن ديويشين أحس وسأل:

- من هناك في الزاوية يبكي خلف الموقد؟

- نعم، هذه ألطاناي، لقد خافت الطفلة، وها هي تبكي، - قالت سايكال.

- ألطاناي؟ من أين أتت هي؟ نهض ديويشين من مكانه، ثم ركع على ركبتيه أمام وسادتي، ولمس كتفي قائلاً: - ماذا حصل لك، يا ألطاناي؟ لماذا أنتِ تبكين؟

أما أنا فاستدرت إلى الحائط، وأخذت أذرف الدموع بغزارة كالسابق.

- ماذا حصل يا عزيزتي، فلماذا أصابك الخوف؟ فهل من الممكن هكذا، فأنت بالنسبة إلينا الشجاعة، والأكبر بين التلاميذ... ارفعي رأسك وانظري نحوي...

نهضت من فراشي وأحاطت يديّ رقبة ديويشين كطفلة صغيرة،

وغرست وجهي في كتفه، بينما كان وجهي مليئاً بالدموع، مشبعاً بحرارة عالية، وتابعت بكائي، ولم أستطع أن أضبط إرادتي، وأتوقف عن البكاء، لقد أدخلتني لحظات السعادة هذه بسلامة ديويشين، إلى حالة شبه النزلة القوية، التي تتناوب فيها الحرارة الشديدة والبرد الجليدي، حيث تصطك الأسنان بلا إرادة، ولم أتمكن أن أوقف هذا الرعد الداخلي في كياني.

- ربما قد هبط قلبها من مكانه! - قال الكهل كارتانباي قلقاً، وهب واقفاً عن اللبد، - تعالي أيتها العجوز، قومي بدعواتك، واقرائي صلواتك، تحركي بسرعة، أنت تعرفين أكثر مني!

أخذ الجميع يهتمون بوضعي، فالجدة سايكال أخذت تهمس الدعوات والصلوات، وهي ترش الماء البارد على وجهي، والساخن أحياناً أخرى، كما وضعت البخور بالقرب مني، وأخذت توجهه نحوي، وهي تبكي معي بمرارة.

آه، لو كان هؤلاء، الذين من حولي يعلمون ما يدور في قلبي، الذي حسب رأيهم، «هبط من مكانه»، إنه حقاً كذلك، لقد احتفل قلبي من السعادة الكبرى، التي كنت عاجزة عن أن أحدث عن كبرها، ولم يكن هذا بإمكاني مطلقاً، أن أفعل شيئاً مع ذاتي، حتى أسيطر على وضعي.

وبقي ديويشين بالقرب مني حتى هدأت كلياً، وخلدت للنوم، وجلس ديويشين إلى جانبي صامتاً، وهو يمسح على جبيني الساخن بيده الباردة.

لقد ابتعد الشتاء خلف الوهاد، والربيع قد أرسل أسراب غيومه الزرق بعيداً، ومع ذوبان كميات الثلوج الكثيرة المكدسة في الوهاد والوديان، أخذت المياه تشق طرقاتها كشرايين دافئة على سفوح

الجبال، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أخذت الرياح الباردة المشبعة بالرطوبة التي تحمل روح الأرض، ورائحة الحليب الساخن. وبالتدريج، أخذت تذوب مرتفعات الثلوج، وأصبح الجليد يلمع بساطه على سفوح الجبال، وترقرقت الجداول، وأخذت تصخب في طريقها، وبدت كأنها محتدمة الجريان تسحب كل ما تجده في طريقها، وهي تملأ الوهاد والمنخفضات بصخب هائل يعكس جو أيام الفيضانات الكبرى.

ربما أن هذا الربيع، كان هو الفصل الربيعي الأول في شبابي، وعلى أية حال، بدا هذا الفصل أقصر بكثير من فصول الربيع، التي عشتها في السنوات الماضية، ومن هناك فوق التل، حيث كانت تشمخ مدرستنا، انفتحت عيون عالم الربيع الرائع الجميل، أما الأرض، فقد بدت وكأنها قد فتحت يديها مستقبلة المياه المتزايدة القادمة من الجبال، وأخذت تزيد من سرعتها، وأصبحت عاجزة أن تتوقف، بينما أخذت أشعة الشمس تنعكس على صفحاتها الفضية في غاية الروعة والبريق الشفاف الجميل، وهناك في مكان ما، بعد ثلاثة أتساع الأرض، كانت تبدو مساحات البحيرات الزرقاء الداكنة، وبعيداً تصهل الخيول، وفي مكان ما أيضاً، كانت تطير في السماء أسراب الغرانيق، وهي ترتفع على أجنحة الغيوم البيضاء. فمن أين أتت الغرانيق، وإلى أين ومن تنادي قلوبها، بمثل هذه الأصوات القوية الطويلة والحادة؟...

ومع قدوم الربيع، أصبحنا نعيش بصورة أجمل، وأكثر فرحاً، أخذنا نفكر بألعاب مختلفة، ونشعر بالمرح، ونضحك أحياناً ومن دون سبب مهم، وبعد الدروس، كان ينطلق التلاميذ من المدرسة، حتى يصلوا إلى القرية، والصراخ والنداءات ترتفع عالياً بينهم. ولم تُعجب

هذه الأصوات المرحة خالتي، وحتى إنها لم تترك فرصة، عندما تراني مرحة مع التلاميذ، إلا وتوجه لي نقداً لاذعاً، وإهانات متتابعة:

- ما بكِ تقفزين فرحة كالمجنونة؟ وكأنه لا يوجد عندك عمل، حتى أخذت تلعبين مع البنات الأصغر منك، فعند الناس المحترمين، كل البنات من عمرك، أصبحن متزوجات منذ زمن، وازداد عدد الأقارب في البيت، أما أنت... وجدت لنفسك لعبة، تذهبين إلى المدرسة... فانتظري، سأجد الوقت المناسب حتى أُنَظم أمورك بيدي...

حقاً، إنني لم آخذ على محمل الجد تهديدات خالتي، فلا من جديد في هذا، فهي طوال العمر تهددني وتعاقبني، أما بخصوص أنني كبرت، ولم يتقدم أحد لطلب يدي، فهذا غير صحيح، والحقيقة أنني ازددت طولاً في هذا الربيع.

- إنك ما زلتِ طفلة شعثاء، بغض النظر عن أنك تبدين أكثر بياضاً في هذا الشتاء، ولكن هذا لا يعني شيء،

وعلى كل حال لا يهمني ما تقوله خالتي، رغم أنني كنت أفكر في نفسي إنني شعثاء، ولكني لست سمراء كثيراً، وعندما سأكبر، سوف أصبح عروساً جميلة، ولن أكون كما أنا الآن؟ وساعتئذٍ، فلتنظر خالتي لي بعينين مفتوحتين، وستراني عندئذٍ جميلة، أما بالنسبة لرأي ديويشين، فهو يقول: إن عينيّ تلمعان كالنجوم، ووجهي كالبدر في منتصف الشهر.

وذات مرة، عندما عدت من المدرسة، كان في ساحة بيتنا حصانان غريبان، وحسب صناعة السروج، وثياب أصحابهما، كانا يبدوان من سكان الجبال، وسبق لي أن شاهدتهما في الطريق من السوق أو المطحنة، ومنذ أن وطأت قدمي ساحة البيت، سمعت صوت

قهقهة غير طبيعية لخالتي: نعم يا ابن أخي، لا ترفع أنفك عالياً جداً، ولا تصور نفسك فقيراً، وخاصة عندما ستحصل على الحمامة، وتصبح بين يديك، ستذكرني بكلمات طيبة. «هه، هه، هه!» وفي الإجابة على كلماتها، سمعت قهقهات بأصوات عالية، وعندما ظهرتُ عند عتبة الغرفة، صمت الجميع، وفي منتصف الغرفة، وضعت خالتي فوق اللبادة العجمية شرشفاً للطعام، وهناك كان يجلس شخص كالجذمور، ذو وجه أحمر، ومنظر مخيف، نظر نحوي بطرف عينيه من تحت وبر قبعته المصنوعة من جلود الثعالب، وثمة أثر لحرفها السفلي فوق جبينه، الذي كان العرق يتصبب منه بكثافة. وسعل بشدة، وأخفض عينيه، بينما قالت الخالة:

- هذه ابنتي قد حضرت، تعالي يا حبيبتي، ولأول مرة أسمع في حياتي مثل هذه الكلمات اللطيفة!.

جلس عمي إلى جانب اللبادة مع شخص غير معروف من قبلي سابقاً، إذ كانا يلعبان بالورق، ويشربان الفودكا، ويأكلان الباش بارماك(*). لقد كان الاثنان ثملين، وحتى إن رأسيهما كانا يلوحان بحركات غير طبيعية، وهما يقذفان بالورق على الأرض.

أما قطتنا الرمادية، فقد اقتربت من شرشف المائدة، ولكن الرجل صاحب الوجه الأحمر، نقرها بإصبعه على رأسها، فهربت متألمة، وهي تهزه في كافة الاتجاهات، وابتعدت بسرعة، وجلست في الزاوية. آه كم تألمت هذه القطة! وأردت أن أخرج على الفور، ولكنني لم أعرف، كيف لي أن أجد السبب المناسب، وهنا ساعدتني خالتي، إذ قالت لي:

(*) شواء من لحم الخيول. - (المترجم).

- اسمعي يا ابنتي، هناك في القازان(*) أكل، فخذي حاجتك وتناولي طعامك ما دام ساخناً.

خرجت من البيت، ولكن لم يعجبني تصرف خالتي ولطفها هذا، وقلقت روحي جداً، ولذلك توترت أعصابي بلا إرادة.

بعد ساعتين من الزمن، اعتلى الضيفان صهوتي حصانهما، وخرجا من ساحة المنزل متجهين إلى الجبال. أخذت الخالة على الفور تقذفني بعبارات حادة، وهذا ما جعلني أستقر قليلاً، وأدركت أنها خاطبتني بهذه الصيغة الناعمة، لأنها شربت الفودكا، وأصبحت لطيفة، وبعد قليل، جاءت إلينا العجوز سايكال، وكنت أمام البيت، ولكنني سمعت ما قالته الجدة لها:

- يا لك على هذا القرار! إنكِ بهذا ستقتلينها.

أخذت الخالة تقاطع جدتي سايكال، بينما تقاطعها الأخيرة، مرات عديدة، وهما تتحدثان بصوت عالٍ وحاد، ولكن العجوز خرجت من البيت حانقة جداً، ونظرت نحوي نظرة حادة، ولكن في مضمونها شيئاً من العطف والتعاطف، وخرجت صامتة، وهنا ساء وضعي، وأخذت أفكر، لماذا نظرت لي هكذا، وماذا فعلت حتى غضبت مني؟

في اليوم الثاني، وفي المدرسة لاحظت أن ديويشين كان حزيناً لسبب ما، وقلقاً للغاية، لكنه كان يخفي كل شيء عنا، حتى نركز على الدراسة، ولاحظت أيضاً، ولسبب ما، أنه لا ينظر نحوي، وبعد انتهاء الدروس، خرجنا جميعاً من المدرسة دفعة واحدة، فناداني بهدوء:

- توقفي، يا ألطاناي. - اقترب المعلم مني، وحدق النظر بعينيّ، ووضع يده فوق كتفي، لا تذهبي اليوم إلى البيت، هل فهمت ما أقصده، يا ألطاناي؟

لقد جمدت من الهلع، الأن فهمت، وأدركت حقيقة الأمر، وماذا أرادت أن تفعل معي الخالة.

- فأنا سوف أدافع عنك، - قال ديويشين، - وسوف تعيشين الآن مؤقتاً عند العجوز سايكال، ولا تبتعدي عني نهائياً.

كما أعتقد أن وجهي كان شاحباً، فنظر ديويشين إلى عينيّ، ثم ابتسم كما كان يفعل دائماً وهو يضع يده تحت ذقني، وقال لي في الأخير وهو يضحك:

- لا يستحق الأمر هذا يا ألطاناي، فعندما أكون إلى جانبك، لا تخافي من أحد على الإطلاق، ادرسي وتابعي ذهابك إلى المدرسة كالعادة، ولا تفكري بأي شيء آخر... فأنا أعرف كم أنتِ جبانة، وتخافين كثيراً... نعم، وفي هذا الخصوص، كنت أرغب منذ فترة بعيدة أن أحدثك.

وكما يبدو أنه تذكر شيئاً مضحكاً، - ضحك ثانية، وقال:

- هل تذكرين تلك المرة عندما قام الكهل كارتانباي في الوقت الباكر، وخرج إلى جهة ما، وعندما نظرت إليه، وجدته يعود مصطحباً معه، . وكان ذلك مفاجئاً لي - فمن تعتقدين؟ - أنها البصارة العجوز جايناكوفا، فقلت: «أطردوها من البيت، فلا يمكن أن نعرف منها، أكثر ما نعرف من غنمة غبية، وليس لدينا نقود حتى ندفع لها، ولم يعد لدينا حصان نهديها إياه، لقد أعطيناه للذئاب...» وكنتِ، أنتِ نائمة. وهكذا طردتها. أما كارتانباي الكهل لم يعد يتحدث معي أسبوعاً كاملاً. لقد غضب مني، وقال: «أنت غلطت معي، فأنا عجوز، ويجب أن لا تهينني». وعلى أي حال، حقاً أنه كان هو والعجوز سايكال إنسانين طيبين، وخيرين جداً. أما الآن فلنذهب إلى البيت، يا ألطاناي...

ومهما حاولت أن أمسك نفسي بيدي، حتى لا أقوم بإزعاج المعلم، فإن الأفكار القلقة رافقتني دائماً، ففي أية لحظة بإمكان الخالة أن تحضر، وتأخذني بقوة معها، وهناك سيفعلون معي ما يشاؤون، ولا يقدر أحد في القرية أن يقول لهم شيئاً، أو يمنعهم من هذه الفعلة. فطوال الليلة، لم يعرف جفني النوم بانتظار المصيبة.

كان ديويشين يدرك كل ما يحيط بي، ويعرف كل شيء عن وضعي، ولذلك، ومن أجل أن يبعث الاستقرار في نفسي، جلب إلى المدرسة في اليوم التالي غرستين تشبه الواحدة الأخرى، وبعد الدروس أخذني من يدي وقادني جانباً.

الآن سنقوم أنا وإياك يا ألطاناي بعمل مهم، - قال مبتسماً بدماثه - وهو أن نزرع هاتين الحورتين، اللتين قد أحضرتهما معي سوية، وبعد عدة سنوات ستكبران وتصبحان قويتان، وستكونين أنت قد أصبحت إنسانة مشهورة.

فأنتِ تمتازين بعالم روحي رائع وممتاز، ولديك عقل نقي، ويبدو لي، وكأنني متأكد من هذا بأنك ستصبحين إنسانةً عالمةً، وأنا على ثقة بذلك، وسترين، وهذا واضح، أن مصيرك سيكون كذلك، فأنت الآن فتاة يافعة. غرسة صغيرة كهاتين الغرستين، والآن سنقوم بزرعهما يا ألطاناي بأيدينا، ولتكن سعادتك الحقيقية في العلوم يا نجمتي الوضاءة الرائعة...

أما الغرستان من حيث الطول فقد كانتا بطولي، يا لهما من غرستي حور جميلتين ورائعتين، وعندما قمنا بغرسهما بالقرب من هذه المدرسة، جاء من جهة الجبل نسيم هادئ، هزهما بهدوء، وكانت هذه هي المرة الأولى، التي تتأرجح فيها الأغصان الصغيرة اليافعة تحت هبات النسيم، حتى ترتعش الوريقات الصغيرة، وكأنهما طفلان ولدا

للحياة كتوءمين، تنفسا الهواء معاً، ودبت الحياة فيهما، كما تدب بأي كائن حي، وأخذت الغرستان تتمايلان بدلال...

انظري، كم هو منظر رائع! - ضحك ديويشين وهو يخطو إلى الخلف. - والآن سوف نشق لهما قناة صغيرة من ذلك الجدول، وفيما بعد سترين، كيف ستصبح الحورتان من أجمل شجرات الحور في الدنيا! وستقفان هنا فوق هذا التل إلى جانب بعضهما كشقيقين، وستكونان دائماً مرئيتين لمسافة بعيدة، وسيتمتع الناس الطيبون برؤيتهما، وعند ذلك تصبح الحياة أجمل يا ألطاناي، والمستقبل سيكون هو الأفضل والأجمل من الحاضر...

وها أنا الآن، لا أستطيع أن أجد الكلمات المناسبة حتى أشكر وأمجد أعمال ديويشين الخيرة والرائعة، وكنت آنذاك أقف ببساطة وأنظر إليه، وفي كل مرة يبدو لي أنني أنظر إليه، وكأنها المرة الأولى. يا لكثرة السمات الإنسانية الموجودة على وجهه! وكم من الطيب واللطف في عينيه، وكأنني لأول مرة آراه في حياتي، وكم كانت يداه حاذقتين وسريعتين في العمل، وكيف كانت ابتسامته نقية، وواضحة ودافئة تملأ عالمي، وهنا ولأول مرة، غمرتني موجة دافئة شملت جسمي كله، وتمركزت في صدري، يا لها من مشاعر جديدة ومجهولة قادمة من هذا العالم المجهول بالنسبة إليّ، ودفعت كل ما في داخلي كالبركان حتى أُسرع إلى ديويشين، وأقول له: «أيها المعلم، شكراً لك لأنك خُلقت في هذا الكون كما أراك... أريد أن أعانقك وأقبلك!» ولكني، لم أتجرأ أن أقول هذه الكلمات، إذ خجلت، وربما كان من الأفضل، لو أنني نطقت بها بكل صراحة...

كنت أقف آنذاك إلى جانبه فوق التل تحت السماء المكشوفة

بين الهضاب، التي أخذت تشملها الخضرة في الربيع، وكل منا يحلم بما يرغب، وفي تلك الساعة نسيت كلياً التهديد والوعيد والخطر، الذي يداهمني، ولم أفكر بما ينتظرني غداً، ولم أفكر لماذا لم تبحث عني خالتي، وأنا غائبة عن البيت لليوم الثاني، ربما قد نسوا أنني أعيش في هذه الدنيا، وقرروا أن يتركوني وشأني؟ وتبين لي أن ديويشين، كان يفكر بما أفكر به، وبالطريقة ذاتها، ولذلك سألني:

- ألا يكفيك حزناً يا ألطاناي، فلا تزعجي نفسك، سنجد حلاً عندما نعود إلى القرية. - فبعد غد سأذهب إلى القيادة، وسأتحدث إليهم عنك. ربما سيجدون مخرجاً، ويرسلونك إلى المدينة للدراسة، أتريدين أن تسافري إلى المدينة؟

فكرت ألطاناي بهدوء، ثم أجابت:

- كما تقول يا معلمي، سيكون.

وعلى الرغم من أنني لم أتصور نفسي في هذه المدينة، التي لا أعرفها، ولكن وبالنسبة إليّ، إن كلمات ديويشين تكفيني حتى أحلم بحياة المدينة، ولا أعلم لماذا خفت قليلاً من الأشياء المجهولة بالنسبة إليّ في مناطق غريبة، ومن جديد قررت أن أعد نفسي للمغادرة والتعلم - لم تعد المدينة تغادر رأسي نهائياً.

وفي اليوم التالي، أخذت أفكر في المدرسة بالشيء نفسه: كيف وعند من سوف أعيش في المدينة، يا حبذا لو وافق أحد ما على رعايتي، وساعتئذٍ سأقطع الحطب، وأحمل الماء، وأغسل الثياب، والأواني، وسأعمل أي شيء يطلبونه مني. أخذتُ أفكر هكذا وأنا أجلس في الدرس على القش، وفجأة ارتعدت في مكاني من الهلع، عندما سمعت خلف جدران مدرستنا القديمة البالية وقع حوافر خيول قوية، لقد كان هذا شيء مفاجئ، لم يحصل من ذي قبل، وكانت

الخيول تركض بسرعة فائقة وجامحة، وكأنها بعد دقائق سوف تخترق جدران مدرستنا، فقلقنا جداً، ولم يكن علينا إلا أن نجلس حذرين جامدين في أمكنتنا، فقال المعلم ديويشين بسرعة:

- لا تقلقوا أيها الأولاد، تابعوا تعلمكم!

وهنا فُتح الباب بصخب وضجة، وعند عتبة الغرفة، التي نجلس فيها رأيت خالتي، إذ وقفت عند الباب وعلى وجهها الشر مختلط مع ابتسامة خبيثة مهددة، فاقترب ديويشين من الباب:

- ما الشيء الذي يهمكم؟

لم تعر خالتي أي انتباه لكلام المعلم، واكتفت بأن تقول له:

- أتينا بمهمة لا تخصك، سوف أعطي ابنتي لعريس تقدم يطلب يدها، أين أنت أيتها المشردة، تعالي إلى هنا!

توجهت الخالة نحوي، ولكن ديويشين وقف في طريقها، ومنعها من التقدم، وقال لها بصلابة وهدوء رزين:

- في هذا الصف يوجد تلميذات، وتلاميذ صغار، وليس لدينا عرائس للزواج!

فأجابت الخالة صارخة:

- إذن، سنتصرف نحن بذاتنا، تقدموا أيها الرجال، أمسكوا واخرجوا هذه الكلبة!

أشارت الخالة لواحد من الخيالة بيدها، وكان هو ذاته، الذي رأيته ذات مرة عند عمي في البيت يلعب الورق معه، وكان وجهه أحمر منتفخاً، وعلى رأسه القبعة نفسها من جلود الثعالب، وأسرع خلفه اثنان ومعهما قيدان ثقيلان.

لم يتحرك المعلم من مكانه.

- ماذا بك أيها الجرو يا ابن الزانية، تتصرف بمصائر البنات،

اللـواتي لا يقربونـك، وكـأنهن مـن نسـائك؟ ابتعـد عـن طريقـي، وإلا حطمتك!

هجم أحمر الوجه هائجاً كالدب نحو ديويشين.

- أنتم لا تملكون الحق بالدخول إلى هنـا، فهـذه مدرسـة! - قـال ديويشين وهو يمسك حافة الباب.

- لقد قلت لكم - فحت الخالـة كـأفعى زرقـاء - فهو منـذ زمـن يركض خلفها، ويحاول أن يلعب بعقلها، فـزأر أحمـر الوجـه وهـو يلـوح بالسوط، وهجم على المعلم صارخاً:

- إنني أبصق عليك وعلى مدرستك!

ولكـن ديويشـين سـبقه، ووجـه لـه ضـربةً علـى بطنـه برجلـه، وبكـل قـوة حتـى صـرخ أحمـر الوجـه ووقـع، وفي هـذه اللحظـة هجـم الاثنـان الآخـران والقيـود بأيدهما علـى المعلـم، بينمـا هجـم الأولاد دفعـة واحـدة نحـوي، يـدافعون عـني، فوقـع البـاب تحـت ضـربات الأوغـاد وتكسر قطعاً منثورة، ركضت نحـو المتقـاتلين، وخلفـي كـل الأولاد، الذين تمسكوا بي، وأنا أصرخ أمامهم:

- اتركوا المعلم! لا تضربوه! هذا أنا، خذوني، لا تضربوا المعلم!

نظـر ديويشـين نحـوي، وكـان وجهـه مضـرجاً بالـدماء لدرجـة مخيفة، ولكنه استمر بالمقاومة بشجاعة، فأمسـك خشـبةً عـن الأرض ولاح بها مدافعاً عن نفسه، وعن الأولاد، وهو يصرخ:

- اركضـوا أيهـا الأولاد، اركضـوا إلى القريـة! اهربـي يـا ألطاناي! - وهنا، غصت حنجرته في الصراخ، لقد عطبوا يده، فضمها إلى صدره، وحاول أن يصد هجومهم، أما أولئك الثيران الهائجة، فقد أخذوا يضربونه، وهو لا حول له ولا قوة، ولا يوجد مـن يفكـه مـن بـين أيديهم.

- اضـربه! اضـربه! يـا صـاتيم علـى رأسـه! ضـربة المـوت علـى نافوخه.

اقتربت مني الخالة المسعورة، ومعها أحمر الوجه، فوضعا على رقبتي حبلاً، وجروني إلى الساحة، فحاولت بكل ما لدي من قوة أن أهرب، وعندها رأيت الأولاد ملطخين بالدماء، وهم يصرخون، وعلى جدار المدرسة ظهرت بقع الدم، التي نزفت من ديويشين وتحولت بعد قليل إلى بقع سوداء، فصرخت:

- يا معلمي!

ولكن ديويشين لم يتمكن من مساعدتي، فهو ما زال يقف على رجليه ويلوح برأسه يمنة ويسرة وإلى الخلف والأمام تحت الضربات الوحشية من كل صوب، وكأنه ثمل ولا يتمكن من تهدئة رأسه على رقبته، أما أنا، فألقوا بي على الأرض وقيدوا يديّ، وفي هذه اللحظة وقع ديويشين على الأرض، فصرخت ثانية:

- يا معلمي!

ولكنهم أطبقوا فمي، وقذفوا بي على سرج الحصان.

أما أحمر الوجه، فقد ركب فوق الحصان، وضغط عليَّ بيديه وصدره، والاثنان الآخران اللذان كانا يضربان ديويشين، قفزا واعتلا صهوتي حصانيهما، بينما ركضت الخالة إلى جانبي، وهي تضربني على رأسي، وتقول لي من بين أسنانها:

- لقد انتظرت قسمتك، انتظرت أخيراً! هذا هو ما انتظرتيه، هكذا أعطيتك للزواج! أما معلمك فقد حلت نهايته...

ولكن هذا لم يكن نقطة النهاية، فمن الخلف وصل إلى أذني صوت ديويشين اليائس متقطعاً:

- ألطا - نا - ا - ي!

رفعـت رأســي الملتصـق بخاصـرة الحصــان، ونظـرت، فـإذا بديويشين يركض خلفنا ملطخاً بالدماء، ويترنح في ركضه كنصف ميت وبيده حجارة زلط، وكان يركض خلفه أولاد صفنا، وهو يصرخ بهم:

- توقفوا أيها الوحوش! توقفوا! اتركوها، اتركوها! يا ألطاناي!

توقف المجرمون، أما الاثنان اللذان ضرباه قبل قليل، فأخذا يدوران حوله على حصانيهما، وهو يعض على كم يده المعطوبة حتى لا تعيق حركته، وصوب ديويشين وقذف الحجر، ولكنه لم يقع على أحدهما، وعند ذلك دفعوه بأرجلهم من فوق الأحصنة نحو بركة الماء، وقاما بضربه بالقيود، التي في أيديهم، حتى وقع في البركة. لقد أصبت بعد ذلك بعدم الرؤية، وكأن شيئاً قد غطى عينيّ، وآخر ما رأيته، كيف ركض الأولاد إلى المعلم ووقفوا حوله.

أما أنا، فلم أعرف ولا أعلم إلى أين حملوني، إلى أن فتحت عينيَّ وأنا في اليورتا المفتوحة من الأعلى، وأول ما رأيت تلك النجوم المبكرة، وهي هادئة، ولم يقلقها أي شيء في السماء العلوية، وبالقرب من هنا، كان يصخب خرير نهر، كما سمعت أصوات رعاة الليل الذين يقومون بحراسة قطعانهم، وعند الموقد المنطفئ كانت تجلس امرأة كهلة متجهمة، وكأنها جذع شجرة يابسة، أما وجهها فقد كان أسمراً قاتماً كالأرض المحروثة لتوها، فاستدرت برأسي إلى الجهة الأخرى حتى لا أراها... آه لو كان بإمكاني أن أقتله بنظري، إنه كان أحمر الوجه الذي أمر هذه المرأة العجوز قائلاً:

- اسمعي يا سودة، أيقظيها!

اقتربت المرأة السوداء مني، وحركتني من كتفي بيد قاسية وخشنة.

- دعيهـا توافـق، وهــي ســتكون شـريكتك كزوجـة ثانيــة، فاشـرحي لها، وأفهميها، وإذا لم توافق فعلى كل حال، إن الحديث معها سيكون قصيراً.

خرج من اليورتا، أما المرأة السوداء، فلم تتحرك قيد أنملة من مكانها، ولم تلفظ أية كلمة، ربما كانت خرساء؟ أما عيناها فقد كانتا تشبهان الرماد البارد وكانت تنظر بهما، ولكنهما لم يعبرا عن شيء. تذكرت أنه توجد بعض الكلاب المضطهدة من أيام الولادة، حين يقوم الناس الأشرار بضربها على رأسها بكل ما يقع تحت أيديهم على رؤوسها، وهذه الجراء تتعود بالتدريج على العذاب، وتصبح عيونها خالية من أي لون كان، وفارغة حتى إنها تخيف مجرد النظر إليها، فنظرت إلى عيني المرأة السوداء وبدت عيناها كأنهما ميتتان، وبدا لي الأمر، وكأنني فقدت الحياة، وأنني في القبر، وكنت مستعدة أن أتلائم مع هذا القبر، لو أنني لم أسمع خرير النهر الصاخب، والمياه كانت بوقعها من فوق الانكسارات الحادة تثير الحياة بي، فهي تتصرف على حريتها، وتبعث الأمل في كياني، فخاطبت هذه العجوز:

- أيتها الخالة، سوداء هي روحك كما هو وجهك؟! لعنكِ الله لعنة أبدية، ولقرن من الزمن! وعسى أن تختنقي بدموع عينيَّ، وبالدماء، التي نزفت مني ومن ديويشين.

في هذه الليلة بلغت من العمر خمسة عشر عاماً من يوم ميلادي، وهكذا أصبحت في هذا اليوم امرأة... لقد كنت أصغر بالسن من أولاد هذا الوحش المغتصب...

في الليلة التالية قررت أن أهرب مهما كلفني الثمن، وحتى لو مت في الطريق، وأكلتني الذئاب، التي تطاردني حتى تفترسني،

ولكني سأقاوم حتى آخر قطرة دم من دمي، وإلى آخر نفس ألفظه كما فعل معلمي ديويشين.

انتظرت حتى جن الليل، وعم الصمت، فانطلقت بهدوء تحت جناح الظلام حاملة بالهروب، تحسست الباب الأول، ثم الثاني فوجدتهما موصدين بشدة، ومربوطين بحبل شعر قوي، ولقد عقد الحبل عدة عقد صعبة الحل في الظلام، فحاولت أن أرفع جانب اليورتا، حتى أخرج زاحفة بأي شكل، ولكني، مهما حاولت وتعذبت فلم أقدر على النفاذ إلى الخارج.

زد على ذلك أن اليورتا كانت مشدودة من الخارج بوساطة الوهق من كل الجهات، بقي لي أن أبحث عن أي شيء حاد، حتى أقطع الحبل، الذي أوصدوا الباب به. أخذت أفتش من حولي، ولكني لم أجد شيئاً عدا إسفين خشب قديم، فأخذت أحفر بواسطته الأرض تحت جانب اليورتا، حتى أكوّن منفذاً ولو كان صغيراً أنفذ من خلاله إلى الحرية، وكنت أتوقع الفشل، وأن يباح أمري، ولكنني لم أتوقف عند هذا، ففي رأسي كان شيء وحيد، وفكرة وحيدة لا بديل عنها، أن أهرب من هنا، أو أموت، وحتى الموت كان أفضل من أن أسمع تنفسه كثور نائم، أو شخيره الكريه، فالموت أفضل من أبقى مع إنسان أراد استعبادي، وعلى أي حال أن الموت سيأتي في يوم من الأيام، ومن الأفضل أن يموت الإنسان حراً في الصراع مع الأعداء، من الخضوع!

(توكول) - الزوجة الثانية. آه، كم أكره هذه الكلمة! فمن وفي أي وقت غابر ابتدع الإنسان في منطقتنا هذه الكلمة! فما هو أصعب وأقسى، وأكثر إهانة للمرأة الثانية من هذه العبودية جسدياً وروحياً! فانهضن أيتها النساء البائسات من قبوركن، انهضن أيتها

الأشباح المدفونة والملعونة والمحرومة من أي احترام بشري! انهضن أيتها النساء المعذبات، حتى يبدو اللون الأسود لتلك الأزمنة! فأنا أخاطبكن كواحدة منكن، أنتن المضطهدات الأخيرات في هذا العصر، وها أنا تمردت على هذا المصير!

لم أعرف في تلك الليلة ماذا ينتظرني بعد أن قلت هذه الكلمات، وتابعت عملي بحفر منفذ تحت جانب اليورتا، ولكن ولسوء حظي كانت الأرض حجرية، ومن الصعب استخراج الأحجار الكبيرة أحياناً. فحفرت بأظافري، وحاولت استخراج الحصى بأصابعي حتى أخذ الدم ينزف منها، وعندما حفرت ممراً ليدي كان ضوء الفجر قد ظهر، وأخذت الكلاب تنبح، واستيقظ الناس في الجوار، وغادرت قطعان الأغنام إلى المكان، الذي تشرب منه، وهي ترفس بقوائمها الكثيرة، وتثير الصخب، وتدق الأرض بأظلافها. زد على ذلك، النخير الكثير للأغنام بعد استيقاظها. وهكذا سارت القطعان في حالة من الكسل، وفيما بعد اقترب شخص ما إلى اليورتا، وفك الحبل، الذي يحيط بها من الخارج، وأخذ يبعد اللباد. هذه كانت المرأة السوداء الصامتة. هذا يعني أن الرعاة يستعدون للرحيل، وهنا تذكرت البارحة ما سمعت من حديث امرأة، يفيد بأن الرعاة سيرحلون اليوم من مكانهم إلى المضيق أولاً، ثم إلى مرعى جديد، وفيما بعد، ولكل فترة الصيف سينتقلون إلى أعماق الجبال في الأعالي من المضيق الجبلي. وهكذا سيصعب الوضع عندي كثيراً، وستتفجر روحي، ويصبح أمر هروبي من هناك أصعب بمئة مرة عن الآن.

جلست عند المكان، الذي باشرت الحفر فيه، وتابعت جلوسي هناك، ولم أتحرك، ولماذا كان عليَّ أن أخفي هذا، ومن أجل ماذا؟... فالمرأة السوداء قد رأت هذا، وتبينت الأمر كيف تم حفر التراب من

تحت جانب اليورتا، ولم تقل شيئاً، وتابعت أعمالها، وكأن هذه الأمور لا تخصها، ولا يوجد شيء في الحياة يوقظ فيها أية مشاعر مسؤولة، وهي لم توقظ زوجها، ولم تجرأ أن تطلب منه أية مساعدة حتى تجهز نفسها إلى الرحيل. كان يشخر كالدب تحت الغطاء والفراء.

تم سحب اللباد ولفه، وبقيت اليورتا خالية، وأنا جالسة فيها، كمن يجلس في قفص، وشاهدت أنه، وليس بعيداً من النهر، كان الناس يرعون الثيران والخيول. ثم شاهدت كيف وصلت ثلاثة خيول مع خيالة على ظهورها إلى هؤلاء الرعاة من جهة ما، وسألوا عندهم عن شيء ما، ثم اتجهوا نحونا. في البداية فكرت أنهم قدموا حتى يساعدوا الناس على الرحيل، ثم ركزت نظري، فذهلت وجمدت في مكاني، لقد تبين لي أنه ديويشين مع اثنين في ثياب الشرطة الرسمية، مع إشارات حمراء على صدورهم.

جلست وكأنني بين الحياة والموت، ولم أقدر حتى على الصراخ، لقد شملتني السعادة كلياً.

- إن معلمي حي يرزق! وفي نفس الوقت ثمة فراغ أحبط روحي: لقد أصبحت ضحية تالفة... كان رأس ديويشين ملفوفاً بطريقة طبية، ويده محمولة على ربطة مثبتة إلى عنقه، قفز عن الحصان وكسر بضربة من قدمه الباب، ودخل إلى اليورتا ونزع الغطاء عن أحمر الوجه.

- انهض! - صرخ به ديويشين مهدداً.

رفع ذلك رأسه وفرك عينيه، وحاول أن يهجم على ديويشين، ولكنه جمد في مكانه أمام الأسلحة الموجهة إليه من الشرطة، فأمسكه ديويشين من رقبته وهزه، ثم شد رأسه بحركة قوية إليه، وقال له:

- أيهـا الوغـد اللئـيم - همـس هـو شـيئاً بشـفاه بيضـاء. - الآن ستعرف إلى أين ستسير! تقدم! لا تلتفت، نفذ بطاعة كل ما أقوله، وعاد ديويشين وشده من كتفه وحدق به مباشرة، وقال له كلمات حادة وبصوت متقطع:

- أنت تفكر أنك قد دستها كما تدوس العشبة الندية، وبهذا تعتقد أنك قتلتها، وانتصرت عليها! إنك واهم يا سافل، لقد انتهى وقت المجرمين، والآن جاء وقتها، وهكذا ستكون نهايتك.

سمحت الشرطة له أن يرتدي ألبسته وجزمته، فربطوا يديه، وقذفوا به على حصانه، وربطوه جيداً، وقاد أحد الشرطة الحصان، بينما سار الشرطي الآخر خلف أحمر الوجه، أما أنا فجلست على حصان ديويشين، وسار هو إلى جانبي.

وعندما تحركنا إلى الأمام، صدر من خلفنا صوت ملؤه القهر والعذاب، حتى بدا غريباً عن أصوات البشر، ويشبه أصوات الحيوانات البرية، كان صوت المرأة السوداء التي أخذت تركض خلفنا، ولقد تصرفت كإنسانة جن جنونها، وهبت مسرعة، وأرادت أن تثأر من أحمر الوجه، وأخذت تقذفه بالحجارة على رأسه، وهي تصرخ، وتشتمه بأسوأ الكلمات، وبصوت تضمن كل الحقد والكراهية له، وهي تقول:

- خذ هذا الحجر لقاء الدم الذي مصصته مني، يا قاتل الأرواح! وهذا الحجر عقاباً على استعبادك لي، يا أيها المجرم، فلن أتركك تغادر حياً!

من المحتمل أنها عاشت أربعين عاماً من دون أن ترفع رأسها، أما الآن، لقد سنحت لها الفرصة أن تعرب عن كل شيء تكدس فوق روحها، وكل شيء قاست منه، فكانت تركض من جهة إلى جهة،

وتقذفه بالحجارة، ثم تعود وتقذفه بكتل الوحل، وكل ما يقع تحت يدها، بينما كان هو الجبان، يخفي رأسه تحت قبعته، وهي تصرخ وتشتمه كملعون فاسد:

- عسى أن لا ينبت العشب هناك حيث تطأ رجلك أيها الوغد! ولتبقى عظامك في الأرض منثورة للوحوش، حتى يأكل الغراب عينيك، ولا ترى النور بعد اليوم، عسى أن لا يسمح اللّه لي أن أراك مرة ثانية! - اغرب، اغرب حتى لا تراك عيني، انقلع أيها الوبش، اغرب، اغرب، اغرب! - صرخت هذه المرأة بمرارة وألم قابعين في أعماق روحها، ثم صمتت وانصرفت، وهي تصرخ وتشتم وتلعن، ثم أخذت تركض إلى جهة غير محددة، وهي تنثر شعرها في الهواء، بينما انطلق الجيران على أحصنتهم في إثرها، حتى يلحقوا بها، ويُعيدوها. كل هذا، قد أخذ ينعكس ككابوس مزمن ألم بي، وأخذ ما أخذ، وتركني في هذا الوضع السيئ. أمضي الآن راكبة على حصان ديويشين، مضطهدة مهانة، بينما كان يسير معلمي وهو يقود الحصان صامتاً مقهوراً، ورأسه مضمد من مختلف الجوانب.

لم يمض بعض الوقت إلا وأصبح المضيق الشرير خلفنا، أما عناصر الشرطة، فقد ابتعدوا عنا إلى الأمام. توقف ديويشين ونظر نحوي لأول مرة بعينين معذبتين، وقال:

- سامحيني يا ألطاناي، لم أستطع أن أحافظ عليك، سامحيني، ثم أخذ يدي ووضعها على خده - حتى ولو كان بإمكانك أن تسامحيني، فأنا لن أسامح نفسي إلى الأبد...

أخذتُ أبكي، وانحنيت على رقبة الحصان، أما ديويشين فقد وقف بجانبي، وهو يمسح على شعري بصمت، وانتظر حتى أروي نفسي من دموع البكاء، وأخفف بعض همومي، وهو يقول بهدوء:

- اهدئي يا ألطاناي، فلنمشِ، واسمعي ماذا سأقول لك: كنت في المنطقة لثلاثة أيام، وخلالها قابلت المسؤولين عن الدراسات، وأخذت الموافقة على سفرك للدراسة، وسوف تسافرين إلى المدينة حسب القرار، هل فهمت ما قلت؟

وعندما توقفنا عند النهر الصاخب النقي، قال ديويشين:

- انزلي عن الحصان يا ألطاناي واغتسلي، ثم سحب من جيبه قطعة صابون وقال: - خذي يا ألطاناي فلا تأسفي لما حدث، وأنا سأبتعد جانباً.

تركني على ضفة النهر واستدار يقود حصانه، عله يقضم بعض الحشائش، وتكلم معي من دون أن يلتفت نحوي ناصحاً: اخلعي ثيابك واغتسلي في النهر، وانسي كل شيء كان، ولا تتذكري هذا كله ثانية! أعدك يا ألطاناي بأن كل شيء سيتغير، ويتحسن وضعك في المستقبل.

أومأت برأسي موافقة على ما قال، وعندما ابتعد عني جانباً، خلعت ثيابي باحتراس، ونزلت إلى جانب النهر، وهناك كانت الحصى البيض والزرق، والخضر، والحمر كعيون تنظر نحوي من تحت المياه الصافية، بينما تابع النهر جريانه كأنه يغلي، والرغوة المتناثرة تتطاير أحياناً وتبدو كزبد البحر. كنت أغرف الماء براحتي يديّ، وأوحيت لنفسي أن هذه المياه مقدسة، وسأطهرها من رجس هؤلاء الأوباش، وخاصة عندما صببت المياه على صدري، وترقرقت على جسمي، وهنا ابتسمت ابتسامة باردة، أقرب ما تكون إلى السخرية بلا إرادة، ولأول مرة منذ ثلاثة أيام، شعرت أنني ما زلت على قيد الحياة، فأخذت من الماء ملء راحتي يديّ، وقذفت بها على جسمي، ثم قذفت نفسي في مجرى النهر، فأخذتني المياه جانباً إلى الضفة، فوقفت ثانية، وقذفت

بنفسي من جديد في المجرى الرئيس والعميق حيث الرغوة العالية، وكنت أتكلم مع هذه المياه القدسية من أرض بلادي قائلة:

- خذي معك أيتها المياه كل ما علق بي من أوساخ هذه الأيام الثلاثة! وأرجوك أن تعيديني إلى براءتي ونقاوتي، حتى أصبح نقية مثلك. أعرف أنه لم يغتسل بك أحد قبلي في هذه الساعة، فأنت بيضاء وقادمة من الثلج الأبيض فوق الجبال! كنت أغتسل وأبتسم، وأنا لا أعرف لماذا، وأتساءل: لماذا لا تبقى مشاعر الناس في تلك الأماكن الغالية على قلوبهم لزمن طويل، وحبذا لو وجدت الآن تلك الطريق، التي عدنا عليها مع ديويشين من الجبال، لكان بإمكاني أن أجثو ساجدة على الأرض، وأقبل آثار المعلم، فهذه الطريق كانت بالنسبة إليّ، وما زالت أغلى طريق على قلبي من بين كل الطرقات. فلتبقِ خالدة إلى الأبد، يا أيتها الطريق، وسأبقى أذكر ذلك المنعطف، الذي توقفنا عنده، وأعادني ديويشين بخبره السار إلى الحياة والثقة بالنفس من جديد... فشكراً لتلك الشمس، وللأرض وللنهر في تلك الأيام...

بعد يومين جاء ديويشين، وأخذني إلى محطة القطارات، وبالنسبة إليّ، لم يعد من الممكن أن أبقى في القرية بعد كل ما حصل، وكان عليَّ أن أبدأ الحياة الجديدة حسب المعطيات للمكان الجديد، وقد وجد الناس في تصرفي هذا، طريقاً وحيداً لمتابعة التعليم، ولقد ودعتني العجوز سايكال وكارتانباي، إذ قلقا جداً على مغادرتي، وبكوا كأطفال صغار، وأعطوني طعاماً، وعدة صرر وأكياس فيها خضار وفواكه، وجاء لوداعي الجيران، وحتى صاتيمكول الذي لم أكن أرغب برؤيته، ودعني قائلاً:

- مع السلامة، يا طفلة، عسى أن يكون طريقك مضاءً، فلا

تقطعي أخبارك عنا، وتصرف كما يقول لك المعلم ديويشين، وساعتئذ سيحالفك النجاح حقاً هكذا، ونحن لم نفهم ذلك جيداً.

ولقد ودعني الأولاد من مدرستنا، حيث ركضوا طويلاً خلف العربة، وهم يلوحون بأيديهم.

سافرت مع مجموعة من التلاميذ، قاموا بإرسالهم إلى بيت الأيتام في طشقند، وهناك كانت بانتظارنا امرأة روسية في سترة جلدية.

وكم من مرة كنت في هذه المحطة الصغيرة الوارفة الظلال، لكثرة أشجار الحور فيها، علماً أنها تعتبر محطة من أقدم المحطات في المنطقة، ولاسيما أنها متوضعة في بداية الجبال، ويبدو لي أنني تركت نصف قلبي هناك، وإلى الأبد.

ومن خلال ضوء خافت ليلكي في ليل ربيعي، كان مزاجي معكراً، فغرقت في كآبة حزينة، وكأن ظلمة السماء كلها وغيومها قد عرفت بوداعنا، فأحبت أن تشاركنا، وهنا حاول ديويشين أن لا يظهر انزعاجه الكبير، وكم تألم لفراقي هذا، وكان يخرج ويبقى لبعض الوقت خارج الغرفة، حتى يفرج عن نفسه، ويعود أحمر العينين، ولكني كنت أعرف أن مثل هذا الألم، الذي نعاني منه نحن الاثنان، كان عالقاً في روحينا، ويحيط بنا من كل الجهات، فكان ديويشين ينظر إليَّ محدقاً بحنان، وخاصة إلى عينيَّ، بينما كانت يده تمسح على شعري ووجهي، وحتى على الأزرار فوق فستاني الوحيد، وهنا قال ديويشين بصوت ملؤه الحشرجة:

- كان من الممكن أن لا تسافري يا ألطاناي، وحبذا لو لم أسمح لك بالمغادرة بعيداً عني خطوة واحدة، ولكني لا أملك الحق في أن أمنعك من التعلم، وعليك أن تدرسي، وتدرسي. فأنا لست متعلماً

كما يجب، فسافري وادرسي، هذا سيكون أفضل... عسى أن تصبحي معلمة حقيقية وبثقافة عالية، وتتذكرين ساعتئذٍ مدرستنا، وربما ستضحكين... فليكن الأمر هكذا، ليكن هكذا...

أخذت القطارات تصفر بصفاراتها المدوية، في هذه المضائق الجبلية، كما بانت أنوار القطارات، وتحرك الناس لدخول عربات القطارات حسب توجهها، عند ذلك شعر ديويشين أن لحظة المغادرة قد اقتربت، فقال بصوت أبح، وكأنه يختنق، وأخذ يضغط على يدي، قائلاً:

- هكذا يا ألطاناي، الآن ستسافرين، - كوني سعيدة، والأهم من كل شيء، أن تدرسي، وتدرسي...

لم أستطع الإجابة: إذ أخذت الدموع تسد حنجرتي، وكأنها تخنقني تدريجياً، فمسح ديويشين الدموع المتدحرجة على خديَّ، وفجأة قال متذكراً:

- لا تبكي يا ألطاناي - أما بالنسبة للحورتين، اللتين غرسناهما، فأنا سأعتني بهما، وأربيهما حتى تكبرا، وعندما ستعودين، وقد حققتِ آمالك، وأصبحتِ إنسانة ذات شأن، سترين الحورتين قد أصبحتا باسقتين، وجميلتين.

في هذه اللحظة توقف القطار، وصدر عن توقف العجلات صريراً، وضجة مزعجين، فضمني ديويشين إلى صدره، وقبلني على جبيني، وقال:

- لنودع بعضنا، وكوني دائماً بصحة جيدة وسعيدة، وأتمنى لك طريقاً وضاءً، فوداعاً يا عزيزتي وقريبتي... فلا تخافي، وكوني مقدامة.

صعدت إلى درجتي العربة، والتفت عبر كتفي نحو ديويشين،

ولم أنس تلك اللحظة إلى الأبد، حيث كان ديويشين ويده مشدودة بربطة قماش إلى عنقه، وهو ينظر نحوي بعينين حزينتين، ثم نفض كتفيه كأنه يريد أن يطير ويقترب مني في لحظة مغادرة القطار، وأخذ يركض إلى جانب نافذة العربة، التي تقلني، وكان صدى صوته، «وداعاً يا ألطاناي! وداعاً يا مصباحي الوحيد» يأتي حاداً، ويذهب صراخي له، «وداعاً يا معلمي! وداعاً يا معلمي العزيز!».

هكذا، تلاشى صدى صوتينا مع سرعة القطار وضجيجه، وتقطع صراخ ديويشين، وهو يركض إلى جانب العربة:

- و ـ دا ـ عاً يا ـ ألطا ـ نا ـ ا ـ ي!

وبدا لي كأن صرخة قد جاءت متأخرة من ديويشين، وكأنه أراد أن يقول لي شيئاً قد نسيه لحظة انطلاق القطار، وحتى الوقت الحاضر، ما زال صدى صوته يتردد في أذنيَّ، لأنه صادر من القلب بحدة، ومن أعماق روحه...

لم يدخل القطار في النفق، بل سار مباشرة، وأخذ يُصعّد من سرعته عبر الهضاب والسهول الكازاخية، ينهب الأرض نهباً نحو حياة جديدة...

وداعاً يا معلمي، وداعاً يا مدرستي الأولى، وداعاً يا طفولتي، وداعاً يا حبي الأول، الحب، الذي لم أبح به لأحد...

نعم، لقد درست في مدينة كبرى حلم بها ديويشين، وفي مدارس كبيرة، وذات نوافذ منيرة كان يحدثنا عنها، ثم أنهيت فيما بعد كلية العمال، فأرسلوني لموسكو للدراسة في المعهد الجامعي.

لقد كانت عندي الكثير من المصاعب خلال سنوات دراستي الطويلة، وكم من مرة وصلت إلى حالة اليأس، وبدا لي الأمر، وكأنني غير قادرة كلياً أن أتغلب على معوقات العلم، ولكن وفي

أصعب اللحظات وأقساها، كنت أضع صورته أمام عينيَّ، وأفكر بكلماته، وكنت أقول: عليَّ أن لا أخل في وعدي لمعلمي، وكان لتأخري في دخول المدرسة أثر كبير على تعليمي، فزملائي يستوعبون فوراً كل شيء درسوه سابقاً، أما أنا فكان عليَّ أن أبدأ من البداية، بل من نقطة الصفر.

وعندما درست في كلية العمال، كتبت للمعلم رسالة وصارحته، إنني أحبه وأنتظره ولكنه لم يجب، وبهذا لم نعد نتواصل بالرسائل، وفكرت أنه رفض هذا حتى لا يشغلني عن الدراسة، وربما كان هو على حق... وربما كانت هناك أسباب أخرى؟ وكم كانت معاناتي كبيرة وشاقة في دراسة مكثفة في تلك المرحلة.

لقد دافعت عن الأطروحة الأولى في موسكو، وكان هذا بالنسبة إليّ نصراً علمياً كبيراً وجاداً، وخلال هذه السنوات، لم أتمكن من الذهاب إلى القرية، وحلت الفاجعة، وبدأت الحرب، وفي أواخر الخريف انتقلت من موسكو إلى فرونزة عبر المحطة نفسها، التي ودعني فيها معلمي، ولقد وجدت وعلى الفور، عربة متجهة إلى السوفخوز عبر قريتنا.

آه، يا وطني العزيز، ففي الزمن الصعب بالنسبة إليك، قررت الذهاب إليك، وفرضت عليّ الحرب أن ألتجأ إليك مرة ثانية، ومهما حاولت أن أكون سعيدة، وأنا أنظر إلى هذه الأرض المحروثة، - وقد أشيدت العديد من القرى على جنبات طرقاتها، التي شقت حديثاً، أو تم استصلاحها، وحرثت الكثير من الأراضي الجديدة، وتم بناء الجسور، ولكن الحرب جعلت كل ما حولنا حزيناً وقاتماً.

اقتربت من القرية وقد قلقت جداً، فنظرت إليها من بعيد، وإلى الشوارع الجديدة، التي أراها لأول مرة، والبيوت والحدائق، ثم ذهبت

إلى ذلك التل، حيث كانت مدرستنا، وهنا أخذت أتنفس بصعوبة، وتشنجت أعصابي - فوق التل كانت الحورتان تقفان جنباً إلى جنب، وقد أصبحتا كبيرتين، والنسيم يداعب أغصانهما، وأول مرة أذكر فيها اسم الإنسان الحقيقي، الذي طيلة حياتي كنت أسميه وأناديه وأخاطبه بـ «المعلم» كما هو واقع الأمر:

- ديويشين - همست بهدوء، - شكراً لك يا ديويش فأنت، الذي قدمت لي كل شيء! وحتى إنك لم تنس الحورتين، فاعتنيت بهما، وهذا يعني، أنك فكرت بي.

وعندما شاهد السائق، الذي يقلني بعربته، والدموع تتدحرج على خديّ، انزعج، وأخذ يسأل:

- ماذا حدث لكم يا أخت؟

- لا شيء، هل تعرف أحداً من هذا الكولخوز؟

- بالطبع أعرف، كل الناس هنا من معارفي.

- وهل تعرف ديويشين، الذي كان معلماً هنا؟

- نعم ديويشين؟ قد ذهب إلى الجبهة، فلقد نقلته من الكولخوز على هذه العربة بالذات إلى مقر اللجنة العسكرية.

وعند المدخل إلى القرية، طلبت من الشاب أن يتوقف، ونزلت من العربة، وأخذت أفكر أن أسير الآن من جانب البيوت في هذا الوقت القلق، وأبحث عن المعارف القدامى، وأسأل: أتعرفون من أنا، فأنا ابنة قريتكم، ولكني لم أتصرف هكذا، ولم أجرؤ، فديويشين كان في الجيش، وليس من أحد يدافع عني، زد على ذلك: لقد أقسمت أن لا أعود إلى المكان، الذي يعيش فيه خالات وعمات وأعمام. فمن الممكن أن يسامح الإنسان الناس، الذين أخطأوا، ولكن تلك التصرفات الشريرة التي قامت بها الخالة وغيرها ممن

لا أحب ذكرهم، لا يمكن أن يسامح بها الإنسان، وأنا لا أرغب في أن يعلموا، أنني أتيت إلى القرية، فقررت أن أعود من الطريق، وأسير إلى الحورتين فوق التل.

أيتها الحورتان! فكم من المياه قد جرت منذ تلك الأيام عندما كنتما غرستين صغيرتين يانعتين، تقفان على ساقين ضعيفين! نعم إنه كان يحلم بشيء ما، كل شيء كان ينتظره ذلك الإنسان، هو أن يزرعكما ويرعاكما، والآن قد تحققت أحلامه وتوقعاته، فلماذا أنتما تصخبان وتضجان، فما الذي يقلقكما؟ أو أنكما تخافان وتشتكيان من قدوم الشتاء، وأن الرياح الباردة ستقطع أوراقكما؟ أو أن الألم والحزن والقلق الشعبي، يسري في نسغيكما؟

نعم، سيكون الشتاء القاسي، وسيكون الجليد والعواصف العاتية، ولكنه سيكون الربيع أيضاً. لقد وقفت طويلاً، وأنا أستمع إلى حفيف الأوراق الخريفية. أما القناة عند جذريّ الشجرتين، التي حفرها ديويشين، وساعدته في ذلك، فقد تم توسيعها وتنظيفها: وفوق الأرض بانت ضربات المعول، ربما كان ديويشين قد جاء في مأذونية من خدمته العسكرية وعمل بها، والمياه قد أصبحت صافية في كل القناة، وعلى وجهها كانت تطفو وريقات خريفية صفر من أوراق الحورتين.

ومن التل كنت أرى السقف القرميدي للمدرسة الحديثة، أما مدرستنا القديمة ها هنا، فلم يعد أحد يذكرها.

سرت نازلة نحو الطريق، فوجدت عربة تعمل بالأجرة، فاستقليتها، وعدت إلى المحطة.

☆ ☆ ☆

بعد الحرب، وبعد السنوات المرة، جاء النصر، وكم من «السعادة المرة»، انهالت على رؤوس أبناء الشعب: أصبح الأولاد يذهبون

إلى المدرسة، وهم يحملون كتبهم ودفاترهم في حقائب آبائهم، التي كانوا يستخدمونها لأخذ الطعام للحقل، وعادت إلى العمل الأيادي الرجالية لنساء المحاربين، اللواتي بكين حظهن ونضبت الدموع في أعينهن، وها هن يعدن بصمت، ويتأقلمن بالتدريج مع مصيرهن في الدنيا، أن يبقين أرامل، وكان من بينهن البعض من اللواتي لن يصدقن استشهاد أزواجهن، وتابعن الانتظار للأقرباء والأحباب، ولاسيما أن كل من كانوا في الجبهة، لم يرجعوا دفعة واحدة إلى بيوتهم.

ولم أعلم أنا، ماذا حصل مع ديويشين، ويقول بعض أبناء المنطقة من الذين يعرفونه، أنه فُقد من دون علم ولا خبر، ولقد وصلت ورقة إلى مجلس المنطقة تؤكد ذلك.

ربما قد استشهد، وضع أهالي القرية هذا بالاحتمال، أما الوقت فقد كان يمضي، ولكن لم يظهر عنه أي خبر أو علم.

«هذا يعني، أن معلمي لن يعود من الحرب، - أخذت أفكر بعض الأحيان. - لم نعد نرى بعضنا منذ ذلك اليوم، عندما ودعنا بعضنا في المحطة...».

وعندما أتذكر الماضي، لا أشك في يوم من الأيام بما أعتقد، وكم من المصائب قد تراكمت في روحي. وفي عام 1946، سافرت إلى جامعة تومسك في أواخر أيام الخريف، وذلك في مهمة علمية. كما سافرت إلى سيبيريا لأول مرة. فلقد كانت هذه المنطقة قاسية وحزينة في فترة ما قبل الشتاء. وكانت الغابات الأبدية القاتمة، تمتد بعيداً خلف النوافذ متجهمة وواعدة، ونادراً ما كنا نشاهد الدخان المنبعث من مداخن القرى، وفوق الأراضي المتجمدة كان يتراكم الثلج الأول، كما تطايرت فوق السهوب العصافير منفوشة الريش، وكانت السماء تحتدم وتحتقن.

وفي القطار شعرت بأريحية، وكان ثمة رفيق سفر في العربة، - محارب سابق في الجبهة ومعوق، يستعين بالعكازتين للسير - ولقد أضحكنا عندما كان يروي لنا القصص الساخرة من تاريخ الحرب، وكذلك الطرف المسلية، ولقد ذُهلت من سعة معرفته وخياله، وقدرته على الحديث بلا توقف. كما ذهلت لقدرته على تجاوز الأمور البسيطة، والضحك عند الضرورة، لأنه من خلال الابتسامة تظهر الحقيقة واضحة، ولقد أحبه الجميع في العربة لدماثته، وخفة دمه، وقد توقف القطار بعد مدينة نوفوسيبيرسك لدقيقة في محطة صغيرة، كنت أقف عند نافذة العربة وأنظر إليه، وضحكت للطرفة، التي رواها.

تحرك القطار، وأخذ يُصعد من سرعته، وظهرت خلف النافذة غرفة الحارس الوحيدة، وعند تقاطع الطرق والإشارة، نظرت من النافذة الزجاجية فشاهدت هناك ديويشين، كان يقف عند هذه الكوة، وهو يلوح بعلم صغير في يده، وهنا لم أعلم ماذا حدث معي فصرخت:

- توقف! - وسمع صراخي كل من في العربة، وركضت إلى الباب وأنا لا أعرف ماذا عليّ أن أعمل، وهنا رأيت عتلة الفرملة على جانب العربة، وقمت بخلعها!

صركت الفرغونات وتوقف القطار بسرعة، وأعطى قوة ارتداد إلى الخلف، وأخذت تتساقط أشياء المسافرين عن الأرفف محدثة ضجة كبرى، كما تدحرجت الكؤوس والأواني، وصرخ الأطفال والنساء، وثمة شخص صرخ صوتاً بالمقلوب.

- إنسان تحت القطار! - قال آخر.

لقد كنت على درجات الهبوط فقفزت من دون أن أرى ما هو أمامي فوق الأرض، كمن يقفز في الفضاء وإلى قاع غير واضح، من دون أن أرى ما ينتظرني في الأسفل، ولم أفهم شيئاً، وأخذت أركض

نحو الغرفة الصغيرة للحارس المراقب إلى ديويشين، ومن خلفي تصاعد صوت صفارات المراقبين، والمرافقين للعربات، ومن العربات قفز الركاب وأخذوا يركضون خلفي ومن دون توقف، حابسة أنفاسي أحياناً، ولاهثة أحياناً أخرى، تابعت ركضي إلى جانب العربات، أما ديويشين، فكان يركض من الجهة الأخرى.

- ديويشين معلمي! - صرخت بشدة، وقذفت بنفسي نحوه.

توقف المراقب عن ملاحقتي من دون أن يفهم ما يحدث، وهو ينظر نحوي، إنه كان هو بالذات ديويشين، بوجهه وعينيه، بالإضافة إلى شاربيه الجديدين، حيث لم يكن له شاربان سابقاً، وقد كبر قليلاً.

- ماذا حدث لك يا سيدة، ماذا بك؟ - أخذ المراقب يتساءل بسرعة باللغة الكازاخية. - ربما أنكم قد أخطأتم في التشبيه مع من تريدين، فأنا مراقب الطريق جانغازين، واسمي بينيو.

- بينيو؟

لم أعرف كيف أطبقت فمي، حتى لا أصرخ من المصيبة، ومن الألم، ومن الخجل، فماذا عملت؟! فأطبقت يدي على وجهي خجلاً، وأحنيت رأسي نحو الأرض، لماذا لم تنشق الأرض وتبتلعني؟ وكان عليَّ أن أعتذر أمام المراقب، وأطلب العفو من جميع الذين عانوا من الصدمة، وكنت أقف صامتة، كحجر مرمي على حافة الطريق، كما صمت جميع الركاب الحانقين لسبب ما. انتظرت عندما سيبدؤون بتوبيخي وهم يصرخون، كل على طريقته، ولكن الجميع قد صمتوا، وفي هذا الصمت صرخت امرأة:

- أيتها البائسة، لقد أخطأتِ في معرفة زوجك أو أخيك، ووقعت على رجل آخر خطأً.

تحرك الناس من حولها وأخذوا بالكلام.

- هل من الممكن أن يحصل هذا. - قال شخص آخر.

- كل شيء ممكن أن يحصل، وأي شيء لم نر في هذه الحرب... - قالت امرأة بصوت حاد، وهي تدافع عنها.

نزع المراقب يديَّ عن وجهي، وقال: - تعالي معي، سوف أوصلك إلى مكانك في العربة، فالجو بارد. أخذني هذا الإنسان من يد، ومن اليد الأخرى ضابط لا أعرفه، وقال أحدهما:

- لنذهب أيتها المواطنة، إننا نفهم وندرك كل شيء.

هدأ الناس من حولي، بينما أخذني الرجلان إلى مكاني في العربة، وكأنهما يحملونني إلى المدفن.

سرنا الهوينا إلى الأمام، وسار خلفنا الآخرون، وحتى الركاب، الذين ساروا من الجهة الأخرى، أخذوا ينظمون إلى الناس بصمت، وثمة شخص ما قذف بمنديل على كتفي، وهو من وبر النعام الناعم جداً، وحتى جاري في الغرفة، استقبلني وهو يقفز على عكازتيه، وينظر إلى وجهي مستطلعاً: هل أصابني مكروه ما، وكان يقفز إلى الأمام، ويلتفت عبر كتفه إلى وجهي، يا له من إنسان رائع، يحب مساعدة الناس، وزرع الابتسامة في أرواحهم، وبنفس الوقت كان هناك رجل شجاع آخر، ومقدام، ولا أعرف لماذا كان يسير، وقد خلع قبعته عن رأسه، يبدو أنه كان يبكي كما بكيت أنا، وفي هذه المسيرة السلمية إلى جانب القطار، كنت أسمع من خلال الصفير والأبواق الهوائية في أشرطة التلغراف، أصوات مراسم الموسيقا الحزينة للدفن. «كلا، لن آراه مطلقاً».

عند العربة، أوقفنا قائد القطار، وأخذ يصرخ بحدة، وهو يهددني بإصبعه، وتحدث عن المسؤولية الجزائية، وعن الضريبة، التي يجب عليّ أن أدفعها، ولكنني لم أجب بكلمة ما. فلقد كان الأمر

بالنسبة إليّ سيان، وأعطاني قرار مشروع جزائي، وطلب مني أن أوقعه، ولكني كنت عاجزة عن أن أمسك بيدي قلماً.

عند ذلك هجم جاري في العربة عليه، وأخذ الورقة منه، واقتحمه بصدره، وهو يقفز على عكازيه، وزأر في وجهه:

- اتركها وشأنها! أنا سأوقع لك، أنا الذي قطعت حركة القطار، وخلعت عتلة الفرملة، فأنا سأجيب، وأتحمل المسؤولية!..

عبر الأرض السيبيرية، هذه الأصقاع الروسية الواسعة، أخذ القطار يسرع، إذ كان قد تأخر قليلاً، وأراد أن يعوض الوقت الضائع، وخلال الطريق أخذ غيتار أحد المسافرين يصدح بحزن وألم، وأخذ جاري في العربة يعزف على أوتاره، وكأنه يدق على نياط قلب كل محارب عاش أيام الحرب، وكانت سلسلة الأغاني، كأغنية واحدة متواصلة، تعبر عن معاناة ومآسي الأرامل الروسيات، وحملت أنا في قلبي الصدى المأساوي من مشوهي الحرب، التي انتهت لتوها.

تعاقبت السنين، وابتعد الماضي، وكان النداء الأبدي، الذي كان يرتعد باهتماماته الكبيرة والصغيرة، فتزوجت متأخرةً جداً، إذ التقيت بإنسان جيد، وأخذنا نربي أطفالنا، ونعيش في أسرة متحابة، وأنا الآن دكتورة في العلوم الفلسفية، وغالباً ما أسافر في مهمات علمية إلى الكثير من دول العالم... ولكن لم أعد أذهب إلى القرية نهائياً، بالطبع كان ذلك لأسباب كثيرة، ولكن لا أريد تبرئة نفسي لأنني قطعت علاقاتي مع أبناء منطقتي - هذا شيء سيئ، ولا يغتفر، ولكن هذا هو قدري، وليس لأنني نسيت الماضي، كلا، لن أستطيع نسيان هذا، ولكني ابتعدت قليلاً عنه.

يصادف أن تكون بعض الينابيع في الجبال، وتعودت أن تذهب إليها عن طريق وعر، وعندما يشق طريق جديد، تفقد الصلة

تدريجياً، مع الطريق القديم، ويتحول الرعاة والمارة إلى نبع أو نهر، يكون الوصول إليه أسهل من الطريق القديم، ويكون الطريق الجديد، ذو ميزات أفضل، إذ تنمو حوله الأعشاب والأشجار ومختلف النباتات، التي تحب الماء كثيراً، كالنعناع وشجيرات العليق، وفيما بعد لم تعد تلاحظ وأنت بعيد، ونادراً ما يتذكر أحد ما، نبعاً كان يذهب إليه تاركاً النهر الكبير في يوم حار، حتى يروي عطشه، وسيأتي إنسان، ويبحث عن النبع القديم في ذلك المكان المهجور، وربما لا يجده، ويبعد الحجارة عن منبعه، ويقص الحشائش، ويهمس في نفسه قائلاً: المكان، الذي تهجره يهجرك، ويتنكر إليك، ولم يعد يعرفك، وهذه المياه، التي كانت تروي منطقة بأكملها، قد نضبت، ولم تعد تتحرك من قبل أحد، يا لها من مياه باردة ومتميزة كانت، بل فريدة من نوعها، بهدوئها ونقاوتها الرائعتين. ويرى الإنسان نفسه في هذا الينبوع، ويرى شخصه بالذات والشمس والسماء والجبال... ويفكر ذلك الإنسان، أنه من العار أن لا يعرف تلك الأماكن، ويجب التحدث للرفاق والأصدقاء عن هذا، يفكر لفترة، ثم ينسى حتى المرة القادمة، وربما تطول لسنين.

هكذا، يحدث في الحياة عادة، ولهذا علينا أن نقتنع بكل ما يجري، وربما لأنها هي الحياة، تفرض نفسها رغماً عن إرادة الإنسان، ولقد تذكرت تلك الأماكن، والينابيع منذ فترة قريبة، بعد أن ذهبت إلى القرية، وعشت تلك اللحظات المؤلمة.

أنتم بالطبع قد فكرتم آنذاك، لماذا غادرت كوركوريو فجأة، وهل، من غير الممكن أن أتحدث للناس عما يدور في خلدي، بل عن كل شيء حدثتكم به الآن؟ كلا، إنني كنت قلقة للغاية، ولقد كنت أشعر بالخجل، لقد خجلت من ذاتي، ولذلك قررت أن

أغادر فوراً، بعد أن أدركت أنه من الصعب أن ألتقي مع ديويشين، ولم أستطع أن أنظر إليه وفي عينيه مباشرة، كان عليَّ أن أهدأ، وأجمع أفكاري، وأفكر في الطريق عن كل شيء، كنت أرغب أن أبوح به له، ولأبناء قريتي، بل ربما لأناس كثيرين ومختلفين.

شعرت بنفسي إنني مخطئة لسبب آخر أيضاً، فليس لي يجب أن توجه الدعوة كضيفة شرف لافتتاح المدرسة الجديدة، وليس لي يجب أن توجه كلمات التحية والاحترام، وليس لي يجب أن يخصص مكان ضيف الشرف على المنصة عند افتتاح المدرسة الحديثة. فصاحب الحق في كل هذا، كان هو معلمنا الأول، أول شيوعي في قريتنا - الكهل ديويشين الآن، ولكن ما حصل هو العكس. جلسنا نحن خلف طاولة الاحتفال، وذلك الإنسان الذهبي، كان يُسرّع من خطواته لتوزيع الرسائل البريدية، ويسرع في إيصال بطاقات التهنئة قبل افتتاح المدرسة لأولئك، الذين كانوا من خريجيها.

فهذه، ليست هي الخطيئة الأولى، فلقد لاحظت هذا في الكثير من المرات، ولذلك إنني أطرح هذا السؤال على نفسي: متى فقدنا نحن الموهبة للتصرف حسب الأصول، وأن نحترم الإنسان البسيط كما احترمه لينين؟ والحمد لله، أننا نتكلم الآن عن مثل هذه الأمور، من دون رياء ومراوغة، وتقلب، وتزلف، وتلون، على طريقة الحرباء، وأرى أنه من الرائع جداً، أننا اقترينا بضع سنتيمترات من لينين.

إن الشباب لا يعرفون أي معلم كان ديويشين في زمانه، ومن أبناء الجيل السابق، لم يعد الكثير على قيد الحياة، لقد استشهد معظمهم، وخاصة من تلاميذ ديويشين على جبهات الحرب الوطنية، ولقد كانوا وبحق تلاميذاً أوفياء لـمُثل معلمهم، وأصبحوا محاربين سوفييت حقيقيين، واستشهد معظمهم من أجل الوطن.

هكذا، كان عليَّ أن أتكلم بكل صراحة للشباب عن معلمي ديويشين، ويجب على أي إنسان كان في مكاني، أن يقوم بما قمت به الآن، ولكنني لم أكن في القرية منذ زمن بعيد، ولا أعرف شيئاً عن ديويشين، ومع مرور الزمن تحول شخصه بالنسبة إليّ كرمز عزيز على قلبي، أقدسه وأضعه كأغلى وسام على صدري، وأسمى تاج على رأسي، في كل نجاحاتي...

إنني سوف أذهب إلى معلمي، وأجيبه عن أي سؤال يطرحه عليَّ، وسأطلب السماح منه.

بعد أن أعود من موسكو، أريد أن أسافر إلى كوركوريو، وسأقترح هناك على الأهالي أن تسمى المدرسة الحديثة الداخلية، باسم «مدرسة ديويشين». نعم، باسم هذا الإنسان القروي البسيط، والذي يقوم الآن بعمل موزع البريد، وآمل أن تكونوا من المؤيدين لاقتراحي هذا، وأرجوكم أن تتفهموا هذا، وتوافقوا عليه.

الساعة الآن في موسكو تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، وها أنا أقف على شرفه الفندق، أنظر إلى المحيط من المصابيح الموسكوفية، وأفكر في قرارة نفسي، كيف سأسافر إلى القرية، وألتقي مع معلمي وأقبله على لحيته الشائبة...

فتحت نوافذ الغرفة على وسعها، فانساب كم كبير من الهواء النقي إليها، ومن خلال الشفق اللازوردي الشفاف، أخذت أنظر بتمعن إلى الرسوم التحضيرية والتجارب للوحة، التي أردت أن أرسمها بدقة، وكانت التجارب كثيرة، وفي كثير من المرات، كنت أعود إلى البدء من جديد، ولكن الحكم على اللوحة بشكل كلي كان أمراً مبكراً، ولم أجد حتى الوقت الحاضر، الشيء الرئيس... أذهب في الأسحار المبكرة، والهادئة، وأفكر، وأفكر،

وأفكر، وهكذا في كل مرة، كنت أقتنع في أن لوحتي - ما زالت مجرد فكرة.

وعلى أي حال، أريد أن أتحدث معكم عن الأشياء، التي لم أرسمها بعد. أريد منكم النصائح، وأنتم بالطبع تدركون أن لوحتي، التي سأرسمها، ستكون مهداة لذكرى المعلم الأول في قريتنا، الشيوعي الأول - للكهل ديويشين.

ولكنني، وحتى الوقت الحاضر لم أتصور نفسي، وهل سيكون بإمكاني أن أعبّر من خلال الألوان عن هذه الحياة المعقدة المليئة بالنضال، وكل هذه المصائر المتنوعة، والطموحات الإنسانية، فكيف لي أن أعمل، كما يقال، أن لا يطفح هذا الفنجان، وحتى أتمكن من أن أوصل فكرتي لكم، أيها المعاصرون لي، وحتى تصبح هذه الفكرة إبداعنا المشترك.

لا أستطيع أن لا أرسم هذه اللوحة، ولكن ثمة كثير من الأفكار والهموم تحيط بي! وفي بعض الأحيان يساورني قلق إنني سأخفق في مهمتي هذه، وعند ذلك ألجأ إلى التفكير: لماذا أراد قدري أن يضع في يدي ريشة الفن؟ وما وراء هذه الحياة المعذبة! ومرة أخرى أشعر بنفسي إنني عملاق، وأكون على استعداد لقلب الجبال رأساً على عقب، وعندها أفكر: أنظر، أدرس، أختار، أرسم حورتي ديويشين وألطاناي، هاتان الحورتان نفسهما، اللتين زرعتا في طفولتك، الكثير من اللحظات السعيدة، بغض النظر، عن أنك لم تعلم القصة الحقيقية لهما. أرسم لوحة ولد قلق أسمر اللون، وقد تسلق عالياً عالياً، وجلس على غصن الحورة، وينظر بعينين مذهولتين إلى الأفق البعيد غير المرئي.

أو أرسم لوحة، وأطلق عليها عنوان «المعلم الأول»، ومن الممكن

أن تعكس في هذه اللوحة، تلك اللحظة، التي يقوم فيها ديويشين بنقل الأطفال على يديه عبر النهر، ومن جانبه تمر الخيول الجامحة، ويعتلي صهوتها أناس أغبياء يضعون على رؤوسهم قبعات شعثاء، من جلود الثعالب الحمر... وإذا لا، فارسم كيف ودع المعلم ألطاناي عندما سافرت إلى المدينة، وأن تذكر، كيف صرخ هو في المرة الأخيرة؟ أرسم مثل هذه اللوحة، كصرخة من ديويشين تسمعها ألطاناي حتى الوقت الحاضر، وتجد لها صداً في قلب كل إنسان.

هكذا أنا أتكلم مع ذاتي، وغالباً ما أتحدث مع نفسي، وحقاً، أنني لا أصل في كل مرة إلى نتيجة، وأنا الآن لم أقرر، أية لوحة سأرسم، ولكنني أعلم شيئاً وحيداً وأساسياً: سوف أبحث.

الجندي الصغير

لأول مرة في حياتهِ، شاهد والده في السينما، فوقتها كان صغيراً، بلغ من العمر خمس سنوات تقريباً.

جرى ذلك في تلك الزريبة البيضاء التي يتم فيها كل عام قص صوف الأغنام في بداية الصيف، أما هذه القاعة الطويلة، فقد كانت مسقوفة بالأترنيك، وما زالت قائمة حتى الوقت الحاضر خلف القرية الكبيرة للسوفخوز في حضن الجبل، إلى جانب الطريق العام.

كان يأتي إلى هنا مع والدته التي كانت تدعى جينكول، وتعمل مسؤولة عن قسم الهاتف الآلي في البريد الريفي، وفي كل صيف، ومنذ بداية موسم قص الصوف، كانت تعمل مشرفة في هذه الورشة، ولهذا أخذت استحقاقها من الإجازات السنوية، وكذلك الأيام، التي ناوبت فيها أكثر من معدل عملها أيام الحصاد في قسم الأعمال الحقلية، خلال فترة الزرع، وخلال فترة جمع المحصول بوساطة الحصادات الضخمة. أما خلال موسم قص الصوف، فقد عملت جينكول حتى آخر يوم، إذ كان نظام الأجرة في هذا الموسم مفيداً للعمال، والمهنيين في القص، وبإمكانهم الحصول على دخل جيد. أما بالنسبة إليها كأرملة شهيد في الحرب، كان يلزمها أن تعمل وتعمل حتى تلبي طلبات الأسرة الكثيرة، وكان عليها أن تقتصد

حتى الكوبيك[*]. بغض النظر عن أن الأسرة عندها غير كبيرة - هي وابنها فقط، وعلى أي حال، فالأسرة هي أسرة، ولها متطلباتها - ومن الضروري تأمينها من الوقود، حتى شراء بعض الأغراض الضرورية، وتبديل الأغراض التالفة، وكذلك شراء الطحين قبل أن يرتفع سعره، ومن الضروري شراء الأحذية اللازمة للشتاء... هذا بالإضافة إلى المتطلبات، التي تظهر مع كل يوم.

ولم تكن هناك إمكانية، أن تترك ابنها في البيت، حيث لا يوجد من يرعاه، ولذلك كانت تأخذه معها إلى العمل، وهنا كان عليها أن تعمل طوال الأيام، على الرغم من أنه كان بحاجة إلى الاعتناء والرعاية، ولكنه كان سعيداً بين العاملين في قص الصوف من الرعاة، ومعهم كلابهم منفوشة الشعر، تقوم بحراسة الأغنام.

وكان الطفل أول من شاهد وصول سيارة السينما مع ألياتها، إلى ساحة الورشة، وانطلق لإعلام كل من في ورشة القص عن هذا الحدث المهم والمفرح، قائلاً:

- أتت السينما! لقد جاءت السينما.

كان المسؤولون عن السينما ينتظرون لحظة انتهاء العمل في قص الأغنام، وحلول الظلمة، حتى باشروا على الفور بعرض الفيلم، بعد ضجر من الانتظار، ولكن عذاب الصبر والتحمل، لم يمر بلا مكافأة. فالفيلم كان عن الحرب، وعلى شرشف أبيض، تم تعليقه بين عمودين في نهاية الصالة الواسعة. بدأت المعارك تظهر على الشاشة، واعتلى أزيز الرصاص، وقعقعة حديد الدبابات، وصرير جنازيرها، وانفجارات الصواريخ، التي كانت تنير بين الحين والآخر، المكان كله.

(*) الكوبيك: أصغر جزء من الروبل الروسي. - (المترجم).

وعلى هذه الشاشة، كانت تظهر أراضي المعارك والشعاب، التي تم كشفها من قبل رجال الاستطلاع، وبعد أن تخمد الصواريخ، يقوم رجال الاستطلاع بكشف المناطق المتقدمة. وتشعل النيران الجبهة في وسط الليل، حتى أخذت مشاعر الطفل تتوهج كلياً، بعد أن كان قد سمع عن الحرب من أمه كثيراً!

بقي الطفل جالساً مع والدته فوق كميات الصوف المكومة، خلف الحاضرين، ومن هناك كانت الرؤية لما يدور على الشاشة أكثر وضوحاً، رغم أنه كان يرغب أن يجلس في الصف الأول، بالقرب من الشاشة، حيث كان يجلس على الأرض، أولئك الذين جاؤوا من السوفخوز على طرف من السرعة، فأراد الطفل أن يذهب إليهم، ويجلس معهم، ولكن أمه ألزمته بالجلوس إلى جانبها بهدوء، وهي تقول له:

- يكفيك حراكاً من الصباح، وحتى الآن، فاجلس بهدوء، ثم أخذته من يده وأجلسته على ركبتيها.

كان جهاز البث السينمائي يتابع عرضه، والحرب تشتد أوارها، أما الناس، فكانوا مشدودين للشاشة برغبة كبيرة. بينما كانت الأم تتنهد حسرة، وترتعد أحياناً من الخوف، عند حدوث الانفجارات، وكانت تضم ابنها الوحيد، وتشده لصدرها، وخاصة عندما كانت الدبابات تسير بكل صخبها وضجيجها نحوهم. وثمة امرأة، كانت تجلس إلى جانبها فوق أكوام الصوف قلقة للغاية، وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة بحيرة و حسرة، مع تأوهات بين الحين والآخر، وهي تردد:

- آه يا إلهي، ماذا يجري، آه يا إلهي، لماذا تُشعل هذه الجهنم!...

أما بالنسبة للطفل، فقد كان الأمر مخيفاً للغاية، رغم أنه كان يجد بعض اللحظات واللقطات التي تثير إعجابه وفرحته،

ولاسيما عندما كان يهرب الفاشيست أمام جنودنا، ويقع بعضهم في الأسر، وعندما كان يقع بعض جنودنا الروس على الأرض، كان على ثقة بأنهم سينهضون، ويتابعون الهجوم.

وبشكل عام، كان ملفتاً للنظر، كيف كان يتساقط الجنود في الحرب بين قتيل وجريح من الجانبين، كما هو واقع الأمر، ويتذكر الطفل، عندما كان يلعب مع زملائه، بلعبة الحرب، كيف بإمكانه أن يقع بسرعة، وينهض على الفور، ولاسيما عندما يكون متقدماً، في لحظة الهجوم، وفي حال تعثر أحد الجنود، بأسلاك، أو بأشياء من بقايا المعارك السابقة، كان يصاب ببعض الجروح والكدمات، ولكنه كان ينهض من جديد، رغم الألم، ثم يعود إلى حالة الهجوم، وينسى الآلام التي حلت به قبل قليل. أما هؤلاء الذين لم ينهضوا ويبقوا على الأرض، وبوضعيات مختلفة، وبلا حراك، وتظهر الدماء على بعض المناطق في أجسامهم، يكون وضعهم أسوأ بكثير، وعلى فرقة الإسعاف أن تتقدم إليهم لإسعافهم، وفي بعض الأحيان، كان الجنود يصابون في بطونهم فيصبرون قليلاً حسب الإصابة، فمنهم من يضع يده فوق الإصابة، ثم ينحني، ويقع بين الحشائش، ولحظتها يسقط سلاحه من يده إلى جانبهم، وهذا يعني أن إصابته خطيرة.

وبعد هذا يتم الإعلان الحربي عن عدد الشهداء والجرحى، بين جنودنا، وما يتكبده جيش العدو من خسائر في العتاد والأفراد.

تتابعت أيام الحرب، وتابع جهاز البث السينمائي عرضه، وأخذ سلاح المدرعات يظهر على الشاشة في كل لوحة أو مشهد سينمائي، وتحت إعصار القصف، وتدمير البيوت، وتبدو على الشاشة بعض الأسلحة الحديثة والفعالة، التي تبلي بلاءً كبيراً في صفوف العدو، وبشكل خاص سلاح الكاتيوشا، الذي ظهر حديثاً ضد الدبابات،

وكـان مـن المفـرح للطفـل، أن الجنـود الـروس قـد تمكـنـوا مـن احـتلال مرتفـع، وأخـذوا يطلقـون النـار علـى العـدو مـن الأعلـى، وحسـب توضـع المنحدر في الوادي، كان الطريق طويلاً وواسعاً كأنه يصل إلى نصـف السماء، ومـن خـلال هـذا الانحـدار الطويـل والعـريض، الـذي كـان يغلـو بالانفجـارات السـود، انـدفعت إلى الأمـام مجموعـة مـن قـوات المدفعيـة، ويبدو من حركتهم، وقسمات وجوههم، كأن شيئاً ما تدق لـه القلـوب بشدة في حنايا الصدر، وقـد امـتلأت بـالعزة والافتخـار، والآلام ومعانـاة الانتظار. كـان عددهم سبعة أشخاص. وهم بكامل ملابسـهم الحربيـة. وبدا واحـد مـن بـين جنـود المدفعيـة، لم يكـن يشـبه الـروس، مـن حيـث قسـمات وجهـه، وهـو شـاب في مقتبـل العمـر، وربمـا أن الطفـل لم يعـر اهتمامه لهذا العسكري، لولا أن أمه لم تنبهه، وتشده من كتفه قائلة:

- انظر! انظر! هذا هو والدك...

ومنذ هذه اللحظة، أصبح يعـرف الطفـل والـده، وأن الفـيلم فيمـا بعـد كـان عـن أبيـه، وتـبين لـه أن والـده مـا زال شـاباً، معتـدل القامـة، مدور الوجه، وعيناه يقظتان تتحركان بسرعة في كـل الجهـات، حتـى بـدت العينـان وهمـا تبرقـان علـى خلفيـة وجهـه الأسمـر، والـذي تكـدس عليه الكثير من الغبـار، والـدخان خـلال المعـارك، وعلـى أي حـال، إنـه كـان قويـاً وحالمـاً بالمسـتقبل. وأعجـب الطفـل بحركـة مـن حركـات أبيـه، وهـو يـدفع عجلـة مدفعـه بكتفـه إلى الأمـام، بعـد أن علقـت في الوحل، ثم التفت، وصرخ لواحد من رفاقه: «هات الذخيرة! لا تتأخر!»، ثم اختفى صوته تحت وقع القذائف الجديدة.

- ماما، هذا أبي؟ - أعاد أولبيك السؤال على أمه.

- ماذا؟ - لم تفهم هي، - اجلس بهدوء وانظر.

- أنتِ قلتِ بأنه أبي.

- نعم، بالطبع، أبوك، وعليك أن تلتزم الصمت فقط. لا تزعج الآخرين.

لماذا قالت هكذا؟ ومن أجل ماذا؟ ربما كان من باب المصادفة من دون أن تفكر في تلك اللحظة، ربما قد قلقت واضطربت، وتذكرت زوجها، أما هو فقد صدق كل شيء، واطمئن جداً، واحتار أمام هذا الوضع المجهول بالنسبة إليه والمفاجئ، حتى إنه شعر بالسرور، وافتخر على طريقة الأطفال بأبيه المحارب. هذا هو الأب الحقيقي! هذا هو وحده والده، أما الأولاد فلقد كانوا يسخرون منه قائلين، ليس لديك أب، فليروا الآن أنهم مخطئون، وهو على حق. فعندما يرون هم والده على الشاشة، ويراه الرعاة أيضاً! سيصدق الجميع، أن والده حي يرزق! فهؤلاء الرعاة أغبياء للغاية، فهو يساعدهم على سوق الأغنام إلى الزريبة، حيث تتم عملية القص، ويطرد الكلاب بعيداً عندما تتقاتل فيما بينها، ودائماً يطرحون الأسئلة عليه حتى الضجر، وجميع الرعاة، بعددهم الكبير، يطرحون عليه سؤال واحد:

- ما اسمك أيها المحارب؟ فيجيبهم:

- أولبيك.

- ابن من أنت؟ - يعاودون السؤال ثانية.

- أنا ابن توكستوسون!

الرعاة لا يدركون فوراً عمن يدور الكلام.

- توكستوسون؟ - يعيد الرعاة السؤال، وهم ينحنون على رقاب خيولهم نحوه، - ماذا تقول: توكستوسون؟

- نعم أنا ابن توكستوسون، - يؤكد هو ثانية.

هكذا قالت له أمه، وهو يجيب دائماً بنفس الكلمات، وكذلك الجدة العمياء كانت تعاقبه، حتى لا ينسى اسم ابيه، أنها

كانت تشد على أذنيه، في حال لم يجب بسرعة، يا لها من شريرة...

- إيه، آ، تعال، توقف، هذا أنت ابن عاملة الهاتف، التي تعمل في البريد، أليس كذلك، آ؟

- كلا، أنا ابن توكستوسون! - يتابع هو بالتأكيد على كلامه. وعند ذلك، يعرف الرعاة عمن يجري الكلام.

- حقاً، أنت ابن توكستوسون! عظيم! لا تغضب، إننا حاولنا أن نجرب قدرتك على التحمل. فلا تنزعج يا بطل، فنحن منذ سنة كاملة في الجبال، أما أنت فهنا تعيش وتكبر كباقي الأعشاب، فمن الصعب معرفة الأولاد جميعهم.

- فيما بعد، يتابع الرعاة الحديث بينهم، وهم يتذكرون والده. يهمسون، قائلين: إنه شاب ذهب في ربيع شبابه المبكر، إلى جبهة القتال، ولم يعد يتذكره أحد، وحسناً أنه قد بقي له ولد، وكم من الشباب قد غادروا إلى الجبهة قبل أن يتزوجوا، ولم يبق لهم في الدنيا من يحمل اسمهم.

والآن، ومنذ تلك اللحظة، التي همست فيها أمه في أذنه قائلة: «انظر، هذا أبوك»، هو المحارب، الذي ظهر على الشاشة، أصبح هذا المحارب له أباً دائماً. وأخذ هذا الولد يفكر به باستمرار، كما يفكر أي طفل بأبيه، وهو بالفعل يشبه لحد كبير ذلك المحارب في الصورة المعلقة على الجدار بالقبعة، والثياب العسكرية.

نظر أولبيك، في تلك اللحظة، إلى صورة أبيه بعيني الابن المحب، وفي روحه البريئة الطفولية، تعالت موجة حارة، وبلا حدود من حب الأبن وحنانه نحو أبيه، أما الأب على الشاشة، كان ينظر، وكأنه يعرف، أنه يوجد له ولد ينتظره، وكأنه أراد أن يبرز من خلال هذه اللحظة الحياتية في الفيلم، حتى يتذكر الولد وإلى الأبد، أنه

يوجد له أب ويفتخر بـه - محارب الحـرب المنتهيـة، والحـرب بـدت للولـد في هـذه اللحظـة غـير ممتعـة، ولا يوجـد أي شـيء مضـحك في تعثـر المحاربين. فالحرب كانت قضية جدية ومهمة للغاية، وأخذ يعاني لأول مرة بإحساس القلق والخوف على الإنسـان القريب منـه، والـذي يحلم دائماً بعودته سالماً، وحتى يعوض ما فاته.

كـان جهـاز العـرض السـينمائي مسـتمراً بعـرض الفـيلم عـن الحرب. في المقدمة كانت تقرقع الدبابات، وتصر بسلاسلها، وتتحـرك بشـكل مخيـف، وهـي تحـرث الأرض وتفتتهـا بتلـك الجنـازيز الفولاذيـة الهائلة، وهي تدور بـالبرج خـلال المسـير، وتطلـق القـذائف المتلاحقـة مـن فوهـات مدافعهـا، أمـا رجـال المدفعيـة، فقـد كـادوا يسـتنفدون قـواهم، وهـم يجرون الأسلحة إلى الأعلى، وهنا أخذ الطفل يصرخ:

- أسـرع، أسـرع، يـا أبـي! الـدبابات تهـاجمكم مـن جهـة أخـرى، احذروا الدبابات.

كـان الابـن ينبـه أبيـه، وأخـيراً أصـيبت الدبابـة بقذيفـة، كمـا أصـابوهـا بعـدة قـذائف «آر بـي جـي»، ممـا أدى بهـا إلى الاشـتعال بـين الشجيرات المحيطة بالقنـاة، وبـدأت المعركـة بـين الـدبابات الـتي أخـذت تطلق قذائفها ضد المدافعين، وكان عدد الدبابات لا يحصـى، وأصـبح الأمر لا يطاق.

شـعر الطفـل كـأنـه علـى مسـافة خطـوات إلى جانـب أبيـه في معمعـان النـار وقرقعـة الحـرب، فـأخـذ يقفـز علـى ركـبتي أمـه عنـدما أخـذت الـدبابات تحـترق، والـدخان الأسـود يتصـاعد منهـا، وعنـدما تقطعـت السلاسـل، وسـقطت عـن عجلاتهـا، أخـذوا بحقـد وكـراهيـة وبصـورة عميـاء يقصـفون ويـدمرون في دائـرة ضيقة، فـأخـذ الولـد يصـر على أسنانه، ويشد قبضتي يديه، عندما شاهد كيف تسـاقط الجنـود

السوفييت في هذه المعركة الواحد بعد الآخر، إلى جانب أسلحتهم، وأصبح عددهم يقل تدريجياً.

كان جهاز العرض السينمائي مستمراً بعرض الفيلم، والحرب متصاعدة، وأخذت الدبابات تقترب أكثر وأكثر، وعند عربة المدفع، انحنى الأب، وأخذ يصرخ بأعلى صوته في جهاز الهاتف الحربي، ولكن صوته لم يكن يصل إلى الجهة المطلوبة، بسبب ضجيج وصخب المعارك وقصف المدفعية، وها هو محارب آخر يسقط في المعركة إلى جانب سلاحه؛ حاول النهوض، ولكنه لم يستطع، وسقط رأسه نحو الأرض، ولم ينهض بعد ذلك، وبدت الأرض إلى جانبه أنها قد اسودت من الدم، وهكذا بقي من الجنود الروس اثنان فقط - أبي ومحارب آخر، وهنا أخذت الدبابات بمطاردتهما، وأطلقت واحدة منها قذيفة سقطت بالقرب من المدفع الذي يلقمه أبي، ومن بين الاستحكامات، ظهر محارب تبين أنه والده، وهو يمسك بسلاحه من جديد، ويلقم مدفعه، ويطلق القذائف الواحدة بعد الأخرى، حتى آخر قذيفة في حوزته، إلا أن الدبابات المعادية، عادت تطلق قذائفها من جديد، وعم الدخان أرض المعركة، وبالتالي شاشة السينما، وعندما انقشع الدخان تبين أن مدفع أبيه احترق، وتدحرج من مكانه بعيداً، ولكن المحارب ما زال حياً، فوقف ببطء من فوق الأرض، وأخذ يسير، وثيابه العسكرية تحترق، وتبدو أطراف ثيابه ملتهبة، والدخان يصعد منها، سار متجهاً نحو الدبابة المعادية، وفي يده قنبلة، وهو لم يعد يرى ولا يسمع أي شيء، وكان همه الوصول لتلك الدبابة، وهو يصرخ بأعلى صوته:

- قف، لن تمروا! - ورمى القنبلة على الدبابة، وبقي واقفاً لثانية، وقفة صمود وتصدي، ملؤها الكره للفاشيست. شدت الأم على يد ابنها لدرجة حادة، حتى كاد يصرخ. لقد أراد أن ينطلق إلى

أبيـه، ولكـن هـذه الدبابـة أخـذت بـإطلاق الرصـاص مـن رشاشـاتها بكثافة، ولمدة من الزمن، فشاهد والده يقع هاوياً علـى الأرض، كمـا تهوي شجرة السنديان التي يتم قطعها بسـرعة، فحاول النهوض ثانيـة، ولكنه وقع على ظهره، فاتحاً يديه على وسعيهما...

صمت جهاز عـرض الفيلم، وتوقفت الحـرب. هـذه كانت نهاية القسـم الأول. فأنـار الميكـانيكي السـينمائي الضـوء، حتـى يضـع الشريط الخاص بالجزء الثاني.

عنـدما عـم النـور في الصـالة، فـرك الحاضـرون أعيـنهم، وهـم يطبقـون جفـونهم، وبعـد العـودة مـن عـالم السـينما، ومـن الحـرب كمسـألة واقعيـة في الحيـاة، انطلـق الولـد، في هـذه اللحظـة، وتـدحرج من فوق شلل الصوف، وأخذ يصرخ بصوت مغتبط:

- أرأيتم يا شباب، هذا أبي! أرأيتم؟ لقد قتلوه، ...

لم ينتظر أحد أن يسمع مثل هـذا الكـلام، ولم يسـتوعبه أحـد، وما علاقته بما حدث، وركض الولد، وهو يصرخ بصوتٍ احتفـالي إلى المكان الذي تعلق فيه الشاشة، وحيـث كـان يجلس أصدقاء الولـد في الصف الأول والثاني والثالث، وهم الذين يهمه رأيهم أكثر مـن رأي أي إنسان أخر، ولقد سـاد الصمت النهـائي في صـالة عـرض الفيلم لمـدة مـن الوقت، وكـان في هذا شـيء مـن الغرابـة. ولم يسـتوعب النـاس الفكـرة السـخيفة الخرقـاء لهذا الولـد بعـد، وخاصـة أنـه كـان يـتكلم فرحـاً، علماً أنه لم ير والده ولا مـرة مـن قبـل. لم يفهـم أحـد شـيئاً مـا، وصـمت الجميع مندهشين، وهم يحركون أكتافهم مستغربين هـذا التصـرف. وخاصة أن العلبة التي تحتوي شـريط الفـيلم السـينمائي، قـد وقعـت مـن يـد الميكـانيكي. وأصـدرت قرقعـة قويـة، ثـم تـدحرجت فـوق الأرض منفصلة لجزأين. ولكن لم يعر أحد لهذا اهتمامه، وحتى الميكانيكي

السينمائي، لم يذهب بسرعة ليرفع الشريط. أما الجندي الصغير، ابن المحارب الشهيد، فقد تابع محاولاته لبرهنة صحة رأيه:

- أرأيتم جميعكم، حقاً إنه أبي!... لقد قتلوه! - كان يؤكد الولد، وهو منفعل أشد انفعال، وكلما زاد صمت الناس، ارتفع صوته وانفعاله أكثر، ولم يتفهم لماذا، لم يفرحوا لفرحه، ولم يتفاخروا بأبيه، كما يتفاخر هو.

ثمة رجل من الكبار في السن قال بلا اهتمام:

- ماذا تقصد؟! كف عن هذا، ولا تقل هكذا!

ولكن ثمة رجل آخر قد عارضه:

- ماذا في الأمر من سوء؟ إن أباه قد استشهد في الجبهة خلال الحرب، أليس هذا صحيحاً؟

وعند ذلك قررت النسوة المجاورات للولد أن يقلن له الحقيقة، لأول مرة:

- هذا ليس والدك، فماذا حل بك حتى تصرخ هكذا؟ فهذا المحارب مجرد ممثل. فاسأل عمك الميكانيكي السينمائي عن هذا.

أما بالنسبة للكبار في السن، فلم يرغبوا بحرمان هذا الولد من الأوهام المرة والرائعة، ولهذا كانوا يأملون من الميكانيكي السينمائي القادم من خارج المنطقة، أن يقول الحقيقة، وبكل بساطة، كما هي في واقع الأمر. كل الأمور تمحورت حوله، ولكنه هنا، قرر أن يلتزم الصمت، وأخذ يحدق في جهاز العرض متظاهراً كأنه مشغول للغاية.

- كلا، إنه أبي، أبي! - لم يتعب الجندي الصغير من التأكيد على الأمر.

- أين هو والدك؟ وكيف شكله؟ - ثمة شاب مجاور لهم، قد أعاد السؤال ثانية. فأجاب الولد:

- إنه ذلك المحارب، الذي سار حاملاً القنبلة في يده، ألم تره؟ وقد وقع هكذا!

وقذف الولد بنفسه على الأرض، ثم تدحرج مبيناً كيف وقع والده، مبيناً هذا، كما حصل في واقع الأمر في الفيلم، وتمدد أمام الشاشة مستلقياً على ظهره، وهو يفتح يديه على وسعيهما.

ضحك المشاهدون رغماً عن إرادتهم، أما هو فقد تمدد كقتيل بلا حراك، ولم يبتسم نهائياً، وعاد الصمت.

- ما بك تفعل هذا، وإلى أين أنت تنظرين يا جينكول؟ - قالت امرأة مسنة من الرعاة، وهي تنتقدها، وكلهم شاهدوا كيف هرعت الأم إلى ابنها، حزينة وحازمة، والدموع تتدحرج من عينها.

فأخذت بيد ابنها، ورفعته عن الأرض.

- لنذهب يا بني، لنذهب. كان هذا والدك حقاً، - قالت الأم بهدوء وسحبته خلفها من هذه الصالة.

كان القمر قد ارتفع عالياً. في سماء زرقاء - داكنة في ليلة هادئة، وأخذت قمم الجبال تبدو بيضاء، أما السهول في المنخفضات، فقد انبسطت عظيمة وفسيحة، كنفق طويل في نهر بلا نهاية.

وفقط، الآن، ولأول مرة في الحياة، عرف الطفل مرارة العيش، عندما يفقد الإنسان حبيباً أو عزيزاً على قلبه، وأصبح الوضع بالنسبة إليه مزعجاً للغاية، ومؤلماً ومراً، أن يحس بفقدان أبيه في المعركة. لقد أراد فجأة أن يضم أمه إلى صدره، وأن يبكي بكاء مراً، ويبكيها معه، ولكنها التزمت الصمت الآن، وصمت معها، وهو يشد على قبضتي يديه، ويبتلع دموعه.

فهو لم يعرف أنه، ومنذ هذه اللحظة، أن والده قد أصبح يعيش في قلبه وضميره، ولن ينساه كشهيد في الجبهة منذ فترة طويلة.

لقاء مع الابن

عاد الكهل المسن تشوردون إلى البيت في وضع غير مريح، لقد بدا، ومن الوهلة الأولى، محتاراً وقلقاً من جهة، ومنشغلاً ومنهمكاً وحزيناً من جهة أخرى، وبكلمة فإن الزوجة قد أدركت فوراً: لقد حصل معه شيء مقلق للغاية. وعندما تحققت من واقع الأمر، أصابها شيء من خيبة الأمل واليأس، إذ لم تعرف، كيف لها أن تتصرف حيال هذا الأمر. لقد ابتدع مسألة غريبة، كان من الممكن النظر إليها من وجهة نظر عقلانية، وكأنها فعلة كهل غريبة الأطوار، أو مجرد خرف، أو هراء، أو أي شيء من هذا القبيل، عدا أن تكون فعلة إنسان عاقل، وفي كامل وعيه.

كان للكهل تشوردون ولد، ومنذ عشرين سنة مضت، استشهد في الجبهة، في ربيع شبابه الأول، وربما قد نساه كل من عرفه بأقدمية الزمن، عدا والده تشوردون، وهو بالذات في حياته المشتركة مع زوجته، لم يتكلم لها ولا مرة عنه، أما الآن، فقد قرر هذا الكهل المعذب بمرارة الذكرى، وعلى حين غرة، أن يسافر إلى هناك، حيثما كان يعيش ابنه قبل بدء الحرب، ويعمل معلماً في إحدى المدارس. فاقترب الكهل من زوجته، وقال بصراحة:

- يبدو لي أنه طوال الفترة الماضية، كان حياً، وكأنه موجود

الآن هناك، ولكن ثمة شيئاً ما جذبني إلى هناك، وبقوة، إذ اشتعل الحنين إليه، فأريد أن أراه مهما كلف الأمر.

نظرت الزوجة إليه خائفة، وأرادت في بداية الأمر، أن تضحك وتسخر من كلامه: «هل أنت في كامل عقلك، ألم يصبك مس من الجنون؟» ولكنها أحجمت عن قول كل هذا، وأجلت المسألة، ومن خلال ملاحظاتها وإحساسها فيما مضى، وما قيل سابقاً من كلام، من هنا وهناك، ومن خلال النظرات الحزينة، التي كان يعبر فيها عن صدق النبرة، قد أدركت الزوجة أنه تكلم هذا بكل جدية، وبالطبع، أنه كان في كامل قواه العقلية، ولقد شعرت في تلك اللحظة، على الرغم من سخافة هذه الرغبة، التي ظهرت الآن، كان من غير الصحيح منعه، كما يُمنع الطفل، - فهذا الإنسان يوجهه نبي الكهولة، ومع تجاعيد عينيه الضيقتين والخيرتين، واللحية البيضاء، التي غزاها الشيب منذ زمن، ويدان كبيرتان تعبتان تستقران الآن فوق ركبتيه كسمكتين كبيرتين، ولكان أثماً، ولقد أسفت عليه مهما يكن، وأكدت على سخافة هذا السر.

- في هذه الحالة، لماذا لم تسافر سابقاً إلى هناك؟ - سألت هي بحذر.

- لا أعرف، - أجاب هو، ثم تنهد بأسف - أما الآن، فلقد رغبت بذلك، وعليَّ أن أسافر إلى هناك، فغداً سأنطلق من طلوع الفجر.

- انظر، وقرر بذاتك، هذا شأنك الشخصي، - قالت الزوجة، وهي تجهز ثياب زوجها التي سيسافر بها.

فكرت هي أن الكهل سيغير رأيه خلال الليل، وفي واقع الأمر، ما الذي يلزمه حتى يسافر إلى هناك، وماذا من الممكن أن يجد هناك الآن في قرية مجهولة بعيدة، وماذا سيرى في تلك الأصقاع؟

ولكن توقعاتها التي انتظرتها لم تتحقق، ولم يفكر تشوردون أن يغير رأيه.

كانت القرية قابعة في حضن الجبل، وقد خلدت إلى النوم، وكانت جميع النوافذ مظلمة، وفقط في بيت تشوردون كان الضوء يعم البيت، فلم يجد الكهل السكون لنفسه مطلقاً، وخلال الليل كان ينهض من فراشه مرة بعد أخرى، ويرتدي معطفه ويخرج إلى ساحة البيت، وفي كل مرة كان يضع أمام الحصان نصف حزمة برسيم، وليس أي برسيم، بل أفضل نوع من زهرة الحشيش التي تم حصدها لأول مرة، ولم يتكاسل في بداية الربيع من جمع الحشائش، ووضعها في مكان نظيف على سطح الملحق، وبشكل منتظم، كان قد وضعها هناك من الصيف الماضي، وفي مناسبة أخرى، لم يسمح لنفسه بمثل هذا الدلال: قبل الشتاء لم يسمح لأحد كان أن يقترب من الحشائش المجففة - وحتى الحصان والبقرة، كان يطردهما للرعي خارج ساحة البيت، في الحواكير الخالية، وفي الأماكن، التي تم حصدها، ونما العشب للمرة ثانية فيها، وكذلك لما تبقى من خريف السنة الماضية من حشائش يابسة، ومن بقايا الأراضي المحصودة، أما الآن فهو لا يبخل بشيء، وحتى بإمكانه أن يضع الذرة والدخن، لملء العليقة خلال الطريق، ووضع بعض الاحتياطي في الخرج.

هكذا أمضى الليل، وهو يهتم بالتجهيز لرحلته، والزوجة لم تنم أيضاً. كانت تظهر نفسها، وكأنها نائمة، حتى لا تزعج كهلها في تحضير أموره كما يجب، أما هي، وعندما كان يخرج من البيت - كانت تتنفس بصعوبة، فهي لم تتمكن من إقناعه بإلغاء رحلته، وكان بإمكانها أن تحاول إقناعه مرة أخرى، قائلة: «عليك أن تفكر جيداً، إلى أين أنت ذاهب؟ ومن أجل ماذا؟ وحتى لو أصبحت تهتم

بالأولاد، فالناس سيضحكون من هذا كثيراً!» ولكنها التزمت الصمت، إذ كانت تخاف أن يقول الكهل لها: «لو كان ابنك، وكنت أماً حقيقية له، لما حاولت إقناعي بعدم السفر».

فهي لم ترغب بسماع مثل هذا الكلام، زد على ذلك، أنها لم تر ابنه، ولم تعرف كيف شكله، فزوجة تشوردون الأولى ماتت قبل عشر سنوات، وأصبحت الزوجة الثانية له، ولهذا، كان الوضع غير مريح بالنسبة إليها، أما هي فلقد كانت تجوب مشاعره نحوه، وتسأله، لماذا ابنتاه المتزوجتان، وهما من الزوجة الثانية، وتعيشان في المدينة مع أسرتيهما، لا تأتيان لرؤيته، وليس لهما أية علاقات معه، هذا مع العلم أن الكهل تشوردون لا يذهب هو أيضاً إليهما إلا نادراً عندما يذهب إلى المدينة، ولم يُحدث عنهما أي شيء يذكر، وهي كانت تجتهد أن لا تُذكره، ولا تسأله، فالخالة في هذه الحالات، تفضل أن تبقى بعيدة - فهذا من الأفضل لها، وربما، لهذا وافقت هي مع هذه البدعة التي خرج بها الكهل بخصوص هذه الرحلة. ثم أخذت تفكر، وقررت: «ربما الشوق الحارق، قد ألم به، وأراد أن يرى ابنه، فليسافر مع السلامة، ويريح نفسه قليلاً، ويبرد قلبه، فسيكون الأمر أهون عليه، وتخف مصيبته، إذا حلت...».

نهض تشوردون عند البريق الأول لطلوع الفجر، وخرج على الفور ليضع السرج على الحصان، ثم عاد وارتدى كل ما عنده من ثياب جديدة وأخذ السوط الذي كان معلقاً على الجدار، وعندما هم بالخروج، انحنى عند رأس زوجته في فراشها، وقال لها هامساً:

- اسمعي، يا تسيبكال، إنني سأغادر، فلا تقلقي، فإنني غداً، وعند بدء الليل سأعود إليك، أتسمعين؟ آ، افهمي جيداً: فالابن هو ابني، بغض النظر أنني أعلم كل شيء، ولكن ثمة شيئاً يجذبني

إلى هناك، ولو أنظر إليه نظرة وأعود، فإن روحي منهكة ومشتاقة، فافهمي... نهضت الزوجة صامتة من الفراش، ودققت في الظلمة، ماذا ارتدى على جسمه، وفجأة ذهلتُ إذ رأت، أنه وضع على رأسه قبعة عتيقة، وهنا أخذت الزوجة تصرخ به بصوت عال:

- كان من الأفضل أن تنظر ما وضعت على رأسك، ولو بحثت لوجدت قبعتك الجديدة. أربعون رقعة على الثياب، التي لبستها، فأنت ذاهب ليس لجلب الحطب، بل تنوي أن تكون ضيفاً. - تلمست الزوجة وجه الصندوق، وأخرجت من هناك قبعة جديدة من فرو الخراف، وقدمتها لزوجها. - خذ، البس، ليس مريحاً أن تسافر بقبعة قديمة.

غير تشوردون القبعة وتوجه إلى المخرج، فصرخت به زوجته:

- توقف، توقف، - امسك، فهذه صرة أكل قد وضعتها لك عند النافذة، ضعها في الخرج كما يجب، فالبارحة لم تأكل شيئاً، ولا يجوز لك أن تجوع في الطريق.

أراد تشوردون أن يقول «شكراً»، ولكنه أحجم عن ذلك، لأنه لم يكن من المعتاد أن يقول الرجل، لزوجته «شكراً».

كانت القرية، ما زالت نائمة، عندما ركب تشوردون فرسه، وأخذ يمر بسرعة من جانب بوابات البيوت، وحتى لا يُقلق الناس، ويوقظهم، سلك طريقاً فرعياً يؤدي إلى الجبال مباشرة.

البارحة في منتصف النهار، وعبر هذا الطريق، وعلى هذه الفرس بكامل عدتها، وعلى هذه العربة ذات العجلتين، عاد تشوردون وهو يملأ العربة بالحطب حتى أعلاها، لأنه كان من الضروري أن يؤمن حاجة الشتاء من الحطب.

لقد قطع عند سفح المضيق الأصغر، شجيرات يابسة برية، وحملها على العربة، ثم وضع فوقها أخشاباً مهشمة، وجلس فوق سرج

الفرس، وهو يضع رجليه في الركابين، وسار بهدوء، إذ أخذ النوم يراوده قليلاً تحت وقع قرقعة العجلات على الطريق الوعر، وصرير حديد العربة القديمة، أما الطقس فقد كان رائعاً وهادئاً.

في فصل الخريف، تمر بعض الأيام، عندما يتغير الجو من يوم لآخر، ويحل جو بارد، على أثر فترة حارة، تذكرنا بأيام وداع الصيف الحارة، وتكون صافية وضاءة ونقية بشكل نادر، ومن جهة الجبل كانت الرؤية لكل المنطقة واضحة: وفي الوديان عادة تكون القرى بمثابة الحدائق الجميلة، وبيوتها تمتاز بجدرانها البيضاء، وترتيبها الجميل، ولقد تلونت المزروعات باللون الأشهب المعبر عن موسم الحصاد، ولاسيما تلك السهول التي زرعت بغراس التبغ. وأخذت التراكتورات ترفع من ضجيجها في حراثة الأرض المفلوحة في الخريف الماضي، والجاهزة للزرع. وهناك في السماء كانت طائرة فضية اللون، تحلق باتزان، وبعيداً في الأفق كانت هناك ما تشبه الغيوم الخفيفة، تكونت من دخان مواقد البيوت لتسبح عالياً باتجاه المدن، وفوق كل هذا، حلقت أسراب طيور داكنة، سريعة الطيران، صامتة، وشكلت ما يشبه التموجات البحرية.

لقد عرف تشوردون، أن هذه الأسراب، تشكلت من طيور السنونو. وكان في الصباح قد شاهدها، عندما جاء لنقل الحطب، وعند الفلاحين، يوجد معنى لقدوم السنونو، ويشير هذا إلى قرب الشتاء، وتوقفت بعض الأسراب منها على خطوط التلغراف، وهكذا امتدت خطوط السنونو في بعض الأحيان لمسافة طويلة، وكانت تتمسك بكابلات التلغراف واحدة مقابل الأخرى على طول الخط، من دون حراك، لا يختلف بعضها عن بعضها الآخر.. كلها لها صدور بيضاء، ورؤوس مدببة، وذيول مزدوجة كالمقص المفتوح، تجلس

بهدوء، ونـادراً مـا تصـدر زقزقـة خفيفـة لهمس مكبـوت، وبـدا الأمـر، وكـأنها تنتظـر لحظـة مـا حتـى تطـير جميعها دفعـة واحـدة، وتـذهب في طريقها المعـروف بالنسـبة إليهـا، حسـب ترحـال الطيـور. ومـن الملاحـظ أنه، وفي أسراب السنونو، كان هنـاك شـيء احتفـالي جمـالي، وشـامل للانضباط والتصـرف الحسـن. «فهـذه مـن الأسـراب المنضبطة، وليسـت كالعصافير»، - فكـر تشوردون بافتخار.

وهكـذا الآن وأمـام عينيـه، انطلقـت السـنونو في طيرانهـا، فصنعت في البداية دورة وداع فوق الأرض، حيثما أمضت أشـهر الصـيف - وكانت الأسراب تلف وتدور حول بعضها، حتى تكـوّن سـرباً كبيراً للغاية، من دون صخب ولا ضجيج، حتى أخذت في بعض المواقع تحجـب نور الشمس لثوان، وبـدت في السـماء كأنهـا غيمـة سـوداء، فيـا لـه مـن سرب أسود رائع.

تـابع تشـوردون طـيران هـذه الأسـراب الملتحمـة مـع بعضـها لمـدة طويلة، فها هـي ترسـم دائرة كبيرة في الفضـاء لآخـر مـرة فـوق الحـدائق الخريفيـة الخاليـة. ثـم تتحـرك الأسـراب بسـرعة، وتخـتلط ثـم تعـود إلى الانقسام من جديـد، وأخـذت بالابتعـاد بسـرعة نحـو السـهوب الفسـيحة. ومـع مـرور الوقـت، أخـذ حجـم الأسـراب يخـف تـدريجياً مـن الخلـف، وكلمـا ابتعـدت أصـبحت أصـغر، حتـى اختفـت في الزرقـة السـماوية اللازورديـة كصـدى الأغنيـة البعيـدة في الفضـاء. وأخـيراً تحـول السـرب كلـه إلى نقطـة سـوداء، غـادرت طيـور السـنونو فيهـا إلى منـاطق غـير مرئية. بعد أن كانت هنا في الصباح، على مقربـة منـا، نتمتع برؤيتهـا، ونسمع همسها. وهنا لم يعلم تشوردون، ما وراء هذا الحنين، والمشـاعر المبهمـة، الـتي سـقطت علـى روحـه، كموجـة مسـكرة تعصـف بـالروح والرأس معاً!

بللت الدموع عيني تشوردون، حتى لم يعد الكهل يرى أي شيء، ولكنه تابع النظر إلى السماء، وهو يزيد من التحسرات لأسباب غير معروفة، ربما كان ذلك لشعور داخلي في ذاته، بخصوص شخص قريب من نفسه وروحه فقده إلى الأبد. فهل كان شاباً، غنى أغنية الوداع ورحل.

عاد تشوردون إلى وضعه الطبيعي، تاركاً أفكاره المشتتة، عندما سمع وقع حوافر لم تعد بعيدة عنه من الخلف، وكانت تدل على أن الحصان كان جيداً، ويركبه إنسان متجهاً إلى التل. لم يعرفه تشوردون مباشرة. إنه كان، كما اتضح أنه سابارلي - الكهل من القرية المجاورة، وهما لا يعرفان بعضهما جيداً، يلتقيان عادة في العزاء، أو مصادفة: يلقيان التحية على بعضهما، ويفترقان. ولقد جهز سابارلي نفسه ليحل ضيفاً في مكان ما. فلقد كان يرتدي ثياباً مخملية جديدة كما يرتدي قالوشاً جديداً مدبباً من الأمام، وعلى رأسه قبعة ذات وبر ثعلب طويل، وفي يده سوط ذو قبضة من خشب الورد الأحمر.

- إلى أين انت ذاهب أيها الحداد؟ - قال سابارلي وهو يحيي تشوردون، وأمسك بالمقود حتى أوقف حصانه.

نعم، لقد كان تشوردون حداداً في يوم من الأيام.

- السنونو يغادر، - قال تشوردون محتاراً.

- ماذا؟ طيور السنونو؟ أين هي؟

- لقد طارت.

- دعها تطير حيث تشاء. وهل أنت ذاهب لجمع الحطب؟

- نعم، الشتاء يتطلب ذلك. أما أنت إلى أين متجه في طريقك؟

بدت ابتسامة على وجه سابارلي الأحمر الوردي، وانتصب الشعر الأسود على ذقنه، حتى بدا وجهه كوجه الشاب.

- إلى ابني. فهو يعمل مديراً للسوفخوز في قرية أكساي، عند الجبال العظيمة، - وبإشارة عريضة من سوطه، اتجه سابارلي نحو ذلك الصوب.

- لقد سمعت عن قرية أكساي، - هز تشوردون برأسه.

- نعم، إنني مسافر إلى هناك. لقد أرسل لي ابني مع رسول: «دع أبي يأتي إلى عندي ليومين». وكما ترى، إنهم هناك يمثلون القيادات، ولكن بدوننا نحن الكهلة، تصعب عليهم الأمور. فحفيدي سيتزوج، وعليَّ أن أحضر الأمور لتنظيم العرس، حتى يكون حسب العادات، وسيكون ضيوف كثر، و هو يفكر بتنظيم سباق للخيل في العرس.

وأخذ سابارلي يتحدث عن العمال في السوفخوز، الذي يديره ابنه، وموسم الصوف في هذا العام كان جيداً، وحصل الرعاة على جوائز ممتازة، والشعب راض عنه، ويوجد خبر سار، أن ابنه مرشح للجائزة عن المنطقة في هذا العام.

كل هذا كان شيئاً جيداً، ولكن تشوردون كان يفكر بشيء آخر. فهو قد سمع الآن حزنه الدفين منذ زمن بعيد، إذ كتب له أن يختزن في صدره إلى الأبد بصمت، وعندما طار السنونو، استيقظ الحزن في صدره، والآن أخذ يشتد ويستعر بقوة الشعلة الملتهبة. هذا هو بالذات الحنين لابني، نعم له بالتأكيد الذي غادر الحياة منذ أمد بعيد. فهو، أيضاً قد عمل في وقت ما، هناك بالقرب من أكساي. وفي تلك الأيام وجه لي دعوة لزيارته، حتى أكون ضيفاً عنده لمدة من الزمن. وأخذ تشوردون يتكلم من دون أن يضع ضوابط في الاصغاء لمحدثه، وحتى أخذ يحدث نفسه من دون أن يفكر بما سيقول، وبماذا سيجيب. وأخذ يتكلم كما في الحلم ويثرثر مقاطعاً محدثه سابارلي:

- أيضاً ابني قد دعاني لزيارته.

- وهل، عندك ولد هناك يا ترى؟

- نعم، - تجمد من الصدمة، وقال تشوردون هامساً.

- أما أنا فلم أعلم بهذا، - قال ببساطة سابارلي، ضاماً كتفيه إلى عنقه. - وهذا، شيء جيد طالما هكذا. فعسى الله أن يعطيهما الصحة، أينما كانوا، وحيثما حلوا، وداعاً! - ومع هذه الكلمات ضرب سابارلي حصانه حتى يسرع.

ومجرد أن ابتعد سابارلي قليلاً عنه، عاد تشوردون إلى وعيه. ودقت في أعماقه، وأعطت صداها تلك الهوة الفارغة والعميقة بلا قاع، وتجلى الصمت القاتل الأبدي في رنين يصم الآذان، كالرعد ضمن أربعة جدران مغلقة: «ماذا قلت؟ لماذا كذبت، وقلت غير الحقيقة! لماذا؟...» قفز تشوردون إلى الطريق، وأخذ يركض، وينادي: سابارلي.

أدار سابارلي حصانه إلى الخلف مستطلعاً الأمر:

- ماذا، ماذا حل بك؟ - سأل سابارلي قلقاً.

وصل تشوردون، وهو يلهث، وأراد أن يشرح له كل شيء، ومن جديد عادت لروحه قوة تردع الرغبة في أن يفكر بابنه، وكأنه حي يرزق والآن، وبعد أن أحياه فجأة، وباعتراف منه بالذات، وعاش في وعيه الباطن، وكذلك في عقل ووعي إنسان آخر، كل هذا لم يسمح لتشوردون أن يقول الحقيقة، فلم يقدر، ولم يستطع أن يدفنه ثانية. ولم يتجرأ أن يقول، إن ابنه منذ زمن قد غادر الحياة، لقد استشهد على الجبهة في الحرب. لقد أراد أن يعيش ابنه قليلاً، ولو دقائق عدة، فيما بعد، سيقول، لن يكون الأمر متأخراً...

- أليس لديك تبغ مفروم؟ إنني أموت بلا دخان، أرجوك أعطني، من فضلك ولو قليلاً منه، - طلب تشوردون، وأضاف: - آه، عسى أن لا يعديك العدو بهذه العدوى! فأجابه سابارلي، بعد أن تنفس الصعداء:

- لقد أخفتني أيها الرجل، ثم مد يده إلى جيبه، وأخرج زجاجة فيها تبغ، وقال لـ تشوردون: افتح كفك، فأنا أعرف من ذاتي، تأثير هذا التبغ اللعين، وأفرغ من هذا الزجاجة على كف تشوردون كمية من التبغ، فلاحظ أن يد تشوردون ترتجف، فسأله: ما بك، لقد كبرت يا حداد، وأصبحت يدك ترتجف! فأجاب تشوردون متحسراً:

- نعم طوعت الكثير من الحديد أيام الحرب. زد على ذلك الكبر في السن. سامحني، قد أخرتك. فأجاب سابارلي:

- عسى أن تكون آخر المصائب، هذا ليس بذي أهمية، وداعاً، سأتابع طريقي، فأجاب تشوردون شاكراً:

- رافقتك السلامة، وعسى أن تصل بخير.

- يا لي من إنسان غريب! أتصرف ثم أندم، أوقفت هذا الشخص، لقول شيء، وندمت على ذلك، حسناً أن هذا الإنسان لم يدقق في الأمر، وغادر متابعاً طريقه الآن.

التف سابارلي عند منعطف الطريق، فوقف تشوردون في مكانه، ثم لحس مسحوق التبغ عن كفه، ونفض ما التصق به على الأرض، وسار نحوى العربة، حيث يأكل حصانه بعض الحشيش.

سار بهدوء، وهو يحني رأسه مفكراً: «ماذا فعلت؟ لقد جن جنوني!»، ثم توقف في منتصف الطريق، ونظر من حوله. توقف لمدة طويلة، وهو ينظر إلى قبة السماء العالية، فوق السهوب الكبيرة، إلى هناك، حيث ابتعدت طيور السنونو، ثم همس: «كلا، يوجد عندي ابن، هو موجود، إنه حي، - ثم صرخ فجأة من الألم والبحة في حنجرته، حقاً، يوجد عندي ابن، يوجد، وأنا أيضاً سوف أذهب لابني، سأراه!»، ثم التزم الصمت من جديد.

خلال هذا الطريق كله، كان تشوردون يقنع نفسه أنه لا يجوز

أن يعاني كل هذه المعاناة الأليمة، وبكل هذا العمق، فالإنسان عاجز عن إلغاء القدر، وعلى الرغم من ذلك، فإن الرغبة في الذهاب إلى القرية كانت تستعر، وتزداد في روحه كالحريق. فمن كان يعرف ماذا حصل خلال هذه السنوات الطويلة. إنه كان يفكر كثيراً، ويحلم أحياناً، ويرى الكوابيس، وفي نفسه حبور، كيف له أن يسافر إلى هناك حتى يقف باحترام ومحبة أمام تلك الأماكن التي أمضى فيها ابنه أيامه الأخيرة قبل أن يغادر إلى الجبهة، أما اللقاء مع سابارلي، فقد كان مجرد مصادفة عابرة، والآن في وعي تشوردون، قد ظهر تصور خارج عن الإرادة، أن ابنه حيٌّ، والسنوات أخذت دورها بأعجوبة، وأصبح الشيء الذي لا يتمناه تشوردون واقعاً، والخيال أصبح حقيقة، وتصور نفسه، كما لو أنه سيصل إلى هذه القرية، وهناك سيستقبله ابنه، وأخذ يفكر عن ماذا سيتحدثان، وكم سيكون كل منهما سعيداً! ويقول لي: «أخيراً قدمت لي أيها الأب، تعال إليّ، وضُمني إلى صدرك!».

تصور الأب أنه يعانق ابنه الحبيب، ويضعه في حضنه قائلاً: «جئت إليك يا حبيبي، يا قرة عيني، فأنت ما زلت كما كنت، أما أنا فقد كبرت كما ترى!». فيجيبني ابني:

«كلا، كلا، يا بابا لم تكبر كثيراً، ولم يمض كثير من الوقت على فراقنا، ولماذا لم تأت إلينا طوال هذا الوقت؟ وكم سنة قد مضت: عشرون عاماً، ربما أكثر، أو أنك لم تشتاق إليّ؟». فأقبله قبلات عدة، وأقول:

- كيف لم أشتاق! فكل حياتي وأنا أتعذب من مرارة الشوق والحنين إليك، فسامحني أنني قد أجبرتك على الانتظار كل هذه الفترة. فلم أتمكن من أن أسافر إليكم، وبعد أن علمت أمك

باستشهادك في الحرب، وقعت من هول المصيبة، والتزمت فراشها، وماتت على أثر ذلك، وها أنا الآن قدمت حتى أحيي ذكراك، وجئت حتى أنحني أمام ذكرى الناس، الذين عشت معهم، وأريد أن أنحني لهذه الأرض، وهذه الجبال، والهواء الذي تنفسته معكم، والماء الذي شربته وإياكم، ولقمة العيش التي تقاسمناها، وهكذا التقينا أيها الابن، فلماذا تنظر إليّ مستغرباً، تعال نخرج معاً، وأرني مدرستك، وعرفني إلى معلميك، وسر معي في طرقات القرية، لقد كنت تحب التحدث كثيراً عنها...

تذكر تشوردون كل شيء بدقة، ولكنه لم يتذكر اسم الصياد الذي عاش في بيته ابنه سلطان، ولكنه كان يعرف أنه إنسان جيد ورائع، وكان سلطان يحبه حباً كبيراً مع الاحترام؛ والآن يجب أن يكون قد بلغ عمره سبعين عاماً تقريباً. هل يا ترى ما زال حياً، أو توفي؟ كان غالباً ما يرسل مع أناس من قريتنا رسائل يدعونا فيها أن نأتي إليه، حتى نصطاد الطيور معاً، وخاصة الطير الحر (صقر الصيد)، وهل يا ترى ما زالت الطيور موجودة حتى الوقت الحاضر؟! ربما، فالصقور تعيش طويلاً.

كان ابني يستأجر عند الصياد الذي كان ابنه يدرس عند سلطان في الصف الأول، وعندما أصبح في الصف الثاني بدأت الحرب، وفيما بعد، أتصور أن هذا الولد تزوج، وأصبحت لديه أسرة، أما والدته، فكانت إنسانة محترمة وطيبة، ولكن الوضع بالنسبة إليها كان صعباً جداً: تعمل في الكولخوز وفي شؤون المنزل مع ملحقاته. فطلبت من سلطان أن يأخذ زوجاً من الكلاب المختصة بالصيد ويعطيها لوالده، فهي كانت عاجزة عن أن تجهز العصيدة، لأفراد الأسرة الكبيرة، فكيف لها أن تطعم الكلاب أيضاً، فأخذ

سلطان كما طلبت منه كلبة رقشاء مع بقع صفراء على جانبيها ، آه، يا لها من كلبة صيد رائعة! وهناك فقط في تلك الجبال الرائعة ، التي تتراكم عليها الثلوج، من الممكن أن تربى مثل هذه الكلاب الجميلة والمتميزة في الصيد ، إذ تنطلق كالصارخ خلف طريدتها ، وكذلك خلف الوعول البرية حتى توقع بها في شبكة الصياد ، وفي صباح اليوم الثاني، أعاد سلطان الكلبة إلى صاحبها ، فقال له صاحبها : «من الأفضل أن أعمل، وأطبخ الأكل لهذه الكلاب من أن تعيدوا الهدية إلي».. أخذت الكلبة الرقشاء بعد أن أعادوها تركض خلف صاحبها ، الذي يركب الدراجة ، أما تشوردون فقد ندم لأنه أعاد كلبة الصيد إلى صاحبها لأنها هدية ، ولكنه كان يعرف أن الكلبة بالنسبة للصياد هي شيء مهم، أما هو فليس لديه الوقت أن يترك محل الحدادة ، ويذهب لتناول الطعام، فكيف له أن يذهب مع الكلبة للصيد يومياً. فهل هذه الكلاب الرقشاء الجميلة ما زالت موجودة أو تاهت في البراري تطارد الثعالب؟

فكر تشوردون بهذا ، ولقد وجد لنفسه حجة أخرى وثيقة ، نعم، كان عليه أن يسافر لهذا الإنسان، ولو توفي - لكان عليَّ أن أغني أمام ضريحه، وإذا كان من بين الأحياء، - سوف أشد على يده، وأشكره لاعتنائه بابني.

لقد منع تشوردون نفسه من أن يقوم بأمر واحد ، عندما ظهرت هذه الفكرة عنده، فكان يخمدها بكافة أشكال الحجج أنه مشغول بالعمل: أخذ يحسب، كم سيكون سعر البطاطا والتبن في شتاء هذه السنة ، ومتى من الأفضل أن يذبح الخروف، وهل من الأفضل أن يبيع البقرة أو يبقيها...

حاول أن لا يفكر، لأن هذا كان منذ زمن بعيد ، تم التفكير

بـه وأعيـد الـتفكير، وكانـت الليـالي الـتي لا نـوم فيهـا، وفي محـل الحـدادة رافقتـه هـذه الأفكـار سـنوات طويلـة، وكانـت تضـرب علـى رأسـه بمطرقـة الـزمن كمـا يضـرب هـو بالمطرقـة علـى الحديـد الملتهـب الأحمر، ثم يسقيه بالماء، ولقـد قـرر في نفسـه، أن الله وحـده هـو الـذي سيحكم أخيراً، هل هو على حق أو لا... وإذا قـدر لـه أن يلتقـي مـع ابنـه في العالم الآخر، ساعتها سيحدثه بكل شـيء، كيـف كـان الأمـر في حقيقته... ولكنه لن يتوقف الآن عن طلب المغفـرة والسـماح، كـلا وإلى الأبـد، وحتـى، فيمـا بعـد، عنـدما قالـت لـه بناتـه اللـواتي يعيشـن في المدينـة، وجهـاً لوجـه، تلـك الكلمـات العجيبـة، فلـم ينـدم تشـوردون، والتزم الصمت...

أما هن فلم يغفرن له، ولم يستطعن ذلك، لأنه، وحسـب رأيهـن، كانت فعلة مخيفة، وكان ذلك قد حدث في نفس اليوم، الـذي تم فيـه وداع سلطان إلى الجبهة في محطة قطارات المدينة.

ففـي شـهر تشـرين أول مـن عـام 1941، هـرع شـخص مـا إلى تشـوردون في محـل الحـدادة وقـال: أسـرع، أسـرع إلى البيـت، لقـد جـاء ابنك للوداع، فارتبـك تشـوردون وهـرع مسـرعاً وهـو يرتـدي ثيـاب العمـل المحروقـة، والمثقبـة مـن شـرارات النـار، والسـوداء مـن جـراء الـدخان في عمل الحدادة، وهكـذا أسـرع إلى البيـت، ومـا زال صـوت المطرقـة يـدق في أذنيه بكل رنينه الحاد. وحتى إنه لم يصدق: كان يعتقد أن ابنه ما زال شـاباً يافعـاً، لم يبلـغ مـن السـن الحـد المسـموح بـه للـذهاب إلى الخدمـة، وتبين أن الأمـر حقيقـي، إذ جـاء سـلطان راكبـاً حصـان أحـد معارفه من مدينة المنطقة، حتى يشاهد أمه المريضة، وكـان قـد مضـي عليها نصف سنة تقريباً في المرض، ولم تتعاف، وطلب من أبيـه أن يـأتي لمحطـة القطـارات حتـى يودعـه عنـد السـفر، ولحظتهـا لم يـتمكن الأب

أن يتحدث مع ابنه عن كل شيء، ولم يكن بإمكانها أن يودع أحدهما الآخر كما يجب، فلم يكن الوقت لقول بعض الكلمات القصيرة، وبقيت الأفكار التي كان يرغب كل منهما أن يحدثها للآخر، وبقيت في رأسه للقاء قادم، هذا مع العلم أنه من الصعب التصور أن يكون هناك لقاء قادم بينهما، حتى يتحدث كل منها للآخر كل شيء كان في خاطره عن حياة الشعب في تلك المرحلة...

ذهب تشوردون إلى المدينة خبباً سريعاً على الحصان مسافة ثلاثين كيلومتراً، حتى تعب الحصان، ومرض، وكاد يموت معه في الطريق، وأول شيء وقع نظره عليه في المحطة، - تلك الجموع الكبيرة من البشر، لدرجة مذهلة، حتى كان من الصعب أن يجد طريقاً للتقدم خطوة إلى الأمام، وماذا، ومن لم يكن هناك! سيارات شحن مغطاة بقماش أحمر سميك، عربات تجرها خيول، وفرشت العربات بالقش والحشائش اليابسة، وعلى السكك الحديدية تضج القطارات على أنواعها بصخب صفاراتها، وصرير عجلاتها، وبين كل هذا كان يقف الشعب من القرى، والدساكر، والمدن في المنطقة: كباراً وصغاراً، ونساءً وكهلة، وقليلاً من الشباب...

أسرع تشوردون، فربط حصانه إلى عربة واقفة في المكان، وهرع يبحث عن ابنه في هذا الخضم من البشر، أخذ يسرع ويطلب السماح بالمرور، وأحياناً يستخدم يديه فيدفع من يأتي بطريقه، وهو يسأل عن مكان التجمع للجنود، فأجابه الناس، أن المتطوعين يجتمعون في حديقة المحطة، وهناك يجمعونهم على حدة، ولا يسمحون لهم بالتحرك، وسوف ينطلقون إلى الجبهة قريباً.

توجه الأب إلى الحديقة على عجل، وهناك خلف الحاجز، كانت تقف مجموعات هائلة، والأوامر العسكرية تصدر واحداً بعد

الآخر، وتتم تلاوة الأسماء في عدة أماكن. وقف تشوردون في حيرة من أمره إلى أين يتجه: وفجأة سمع صوتاً ينادي: «أبي! أبي! من بين الأشجار التي يصعب رؤية الآخرين منها، تعال إلى هنا!» فوجد ابنتيه تلوحان بأيديهما، كانتا تقفان عند المخرج إلى الحديقة، وهما تتجهان إليه، وشاهد تشوردون ابنه خلف الحاجز في صف الانضباط، وهنا شاهد الولد أبيه، وأخذ يلوح بيديه مبتسماً، ولكنه كان خجلاً محترساً، فحزن الوالد جداً على وضع ابنه، إنه كان ما يزال ولداً، لم ينبت الشعر على ذقنه، ولكنه من حيث القامة، لا يقل عن الآخرين، أما من حيث كتفيه ووجهه - كان ولداً يافعاً، فما زال في طور النمو، وبقي عدة سنوات له ليكتمل نموه، ولقد رأى تشوردون نفسه في شخص ابنه أيام كان في عمره، وأن ابنه سيصبح رجلاً قوي الجسم والمراس لو انتظروا عليه سنتين، لكان شاباً قوياً ومن خيرة الجنود الشجعان.

فيما بعد، وأنا أفكر بابني، أراد تشوردون وأكثر من مرة، أن يمحص ما يدور في داخله، فهو يحترم ابنه، وليس فقط يحبه من بابا المصادفة - فكل إنسان بإمكانه أن يحب منذ الطفولة، إنساناً عاقلاً، متساوياً مع ذاته بغض النظر أنه كان يتصرف كإنسان شقي ولكنه مستقيم، وهكذا لم يتمكن أن يتفهم، لماذا كان الأمر هكذا. وخاصة منذ تلك اللحظة، كيف أصبح ابنه معلماً. تعامل تشوردون معه باحترام كبير، وكان يتحدث معه، كإنسان محترم، ويتبادل معه أطراف الحديث، بغض النظر عن أنه كان يأتي إلى البيت أحياناً، ناسياً أن يخلع شال الطلائع الأحمر عن رقبته - لقد كان في المدرسة رئيس فرقة الطلائع، وكان شاباً متحمساً، مندفعاً لفعل الكثير، ولكنه، ومع الزمن، كما حسب تشوردون، كان

عليه أن يغير الكثير من طباعة، فمن غير الضروري أن يزعج الإنسان الآخر بإملاء الرأي عليه والضغط، وعند ذلك سيحدد هو مصيره، كما كان يعتقد تشوردون، ومن الممكن أن هذا قد شكل سبباً لاصطدامه مع ابنته - الكبيرة - زينيش، والصغرى ساليكا، اللتين درستا في المدينة. وتزوجتا، وأصبحتا من سكان المدن، فهما اللتان أخذتا أخوهما سلطان إلى المدينة، وهنا أنهى المعهد المتوسط التعليمي، وعمل سنة كاملة في التعليم.

عندما وصل تشوردون أخيراً إلى ابنتيه، لم يفهم لماذا أخذتا تخرجانه من بين الناس، فكانتا في أشدِ وضع عصبي، والشرر يتطاير من عيونهما، وكانتا تشتمان أخيهما بصوت مسموع، وتنعتاه بالولد المجنون، وكان عدد الناس من حولهم كبيراً جداً، بينما أسرعت كل واحدة من الابنتين تزيد من عصبيتها وحدتها، ولذلك اشتبكتا مع أبيهما في نقاش حاد:

- هل علمت أنت بأن ابنك قد تطوع بالذهاب إلى الجبهة كفدائي؟

- كلا، - غصّ تشوردون وهو يجيب، - وماذا سأفعل؟

- إننا اتصلنا بقسم قيادة التطوع في المنطقة، فأجابونا بأنه قد قدم، وبمحض إرادته، وأعلن عن رغبته بالذهاب إلى الجبهة، وقدم طلباً خطياً، أتفهم هذا؟

- إنه من حيث العمر، ما زال صغيراً، أتفهم ما سيكون في نهاية الأمر؟

- هذا يعني، أنه اقتنع بهذا، ونفذ ما يريد.

- تقول إنه اقتنع بهذا؟ - وعند ذلك أخذت كل من الابنتين برفع صوتهما على أبيها - وكيف أنت لا تدرك حقيقة الأمر يا والدنا،

فيكفينا أن زوجينا في الجبهة، يحاربان منذ مدة هناك، ومن غير المعروف إن كانا على قيد الحياة، أو لا، ولقد بقينا وحدنا، والآن هو الآخر، والولد الوحيد في الأسرة، يتركنا، ويذهب للتطوع كفدائي.

- إنه سيقتل هناك، كما يقتل الزغلول الصغير قبل أن يكتمل ريشه، ويتعلم الطيران، فالجبهة ليست مرافقة لفرقة الطلائع.

- فماذا بك تصمت يا والدنا، افعل شيئاً ما!

- وماذا عليَّ أن أقول، وما عليَّ أن أعمل؟

- اذهب الآن إليه، واطلب من القيادة أن يسمحوا لك بالدخول والتكلم معه، اذهب وقل إنه ما زال ولداً يافعاً، وليس بإمكانه لصغر سنه القيام بمهام الجبهة، اذهب قبل أن يمضي الوقت، اذهب واقنعه أن يعود عن قراره عله يرفض الذهاب الآن، وسيذهب لاحقاً عندما يكبر، بإمكانك وحدك أن تمنعه.

- كلا، توقفا، - قال تشوردون، إنه من الصعب جداً إقناعه في الوقت الحاضر، وهو في حالة الحماسة هذه، كما يصعب الشرح لكما الآن، فمن المستحيل طلب هذا من الإنسان المتطوع بمحض إرادته، ومندفعاً كل الاندفاع، وكأنه يتجابن ويتراجع عن طلبه بالتطوع، ويشبه هذا الهروب من الجبهة، وكأنه يسحب كلامه؟ فكيف سينظر بعينيه إلى أولئك الذين يقفون معه الآن في صف واحد؟ وماذا سيفكرون وماذا سيقولون عنه؟! وماذا سيقول هو عن نفسه، وكيف سينظر إلى وجهه في المرآة؟!

- لا، لن يكون الأمر مريحاً له، بل سيكون من المعيب عليه جداً، - قال تشوردون.

- عن أي عيب تتحدث هنا، - قالت الأخت الأولى، وقالت الثانية:

- نعم، ومن يهمه أمره هنا، ويعرفه، يا إلهي، ومن الذي سيهتم بأمره! فأجابهما الوالد:

- إنه هو بالذات الذي سيسأل نفسه، وهو المسؤول الأول عن روحه، وهذا أهم شيء.

- آه، اترك هذا الوهم يا أبي. إنه لا يزال ولداً يافعاً، اذهب ما دام يوجد لدينا وقت.

تحرك الناس هنا، واعتلى الصخب، والتزم الجانب الخلفي، وفجأ انطلقت تصدح موسيقا الوداع العسكرية، وعلت الراية الحمراء ترفرف فوق جموع المتطوعين، ومن باب الحديقة، أخذ المتطوعون يخرجون بصفوف منتظمة، وتم الإعلان عن الصعود إلى عربات القطار، أما الابنتان، فقد أمسكتا بأبيهما تشوردون من يديه، وأخذتا تدفعانه للأمام، وهما تصرخان بين آلاف الجماهير، وأصوات الموسيقى، وضجيج القطارات...

- لنذهب إلى المسؤول الحزبي! هو هناك في المحطة، فعليك أن تنقذ ابنك!

- لنذهب يا والدي، من أجل أمنا المريضة في فراشها.

أخذ تشوردون، عندما سمع هذه الكلمات الأخيرة بالتردد، وتقدمت الابنتان بكل جرأة بين الناس، وهما تدفعان والدهما إلى الأمام نحو المحطة، حيث يجلس المسؤول الحزبي عن تطويع هذه الدفعة من المتطوعين من مبنى المحطة. امتد درج حجري طويل متصاعداً، ومن أسفل الدرج وحتى آخر درجة، كان الناس يتزاحمون فيما بينهم، وكل لديه طلب أو سؤال. أما الابنتان فقد سحبتا والدهما إلى الأعلى بين الأجسام الملتهبة التي يتصبب العرق الغزير منها، ومن جانب آخر، كانت تحدق مئات الأعين الباكية من آلام الحرب، ومصائبها، وعبر

الدموع، والرجولة ويأس وحزن المودعين، وعبر ضربات وقرع الطبول، وأصوات الموسيقى الحربية، وأصوات الوداع للجنود في الساحة، كل هذا اخترق آلامه الخاصة وصرخته الصامتة لروحه البائسة.

وبغض النظر عن أن تشوردون كان يفهم جيداً أن الأختين كانتا تريدان لأخيهما الخير، وكل ما هو أفضل وأحسن له، ولكل الأسرة، وكان الأب يدرك كيف تحب كل واحدة من الأختين أخيها على طريقتها، ويعرف مدى حبهما له، ومحافظتهما على صحته، ففي هذه اللحظة، وهو يدرك كل هذا، تصاعدت في داخله موجة من الشر الصامت نحو ابنتيه اللتين تقودانه إلى القيام بأمر ضد قناعة ابنه ويتعارض مع إرادته واستقلالية قراره، وأرادتا أن أقتل في روح ابني قيم الرجولة الإنسانية، أما هما فكانتا تجراني، وتجراني عبر هذا الدرج إلى الأعلى، وصعود كل درجة، وتجاوز الناس، كان الأمر معذباً، وعندما أوشك على الوصول إلى الأعلى، رأى تشوردون أخيراً، الصف المنتظم، الذي يسير فيه المتطوعون، ومن بينهم ابنه، بينما كانت الفرقة الموسيقية تعزف موسيقى الوداع الحربية لآخر مجموعة بين المتطوعين في القطار الحربي.

سار سلطان في الصف الأخير من الجهة الأخرى، فعرفه تشوردون من بين كل المتطوعين بسرعة، ورأى كيف كان ينظر من حوله كأنه يبحث بين الجمهور عن أبيه وأختيه، ولو عرف أن أختيه كانتا تجران والدهما في هذه اللحظة إلى المسؤول الحزبي عن المتطوعين، حتى يرجوه بالعودة عن قراره، وبهذا كنا سنحط من كرامتك، رغماً عن إرادتك، وحتى نهين فيك قيمة الرجولة الإنسانية! وأتصور أنك كنت ستصرخ محتجاً على تصرفاتنا اللامسؤولة!

ثم شاهد تشوردون، كيف طارت من بين الجمهور فتاة رائعة في

منديل أحمر، كانت تركض إلى سلطان، ولكن الحراس والمرافقة منعوها من عناقه، وتمكنت أن تشد على يده فقط.

وعندما وصل تشوردون وابنتاه إلى غرفة مدير المحطة التي يجلس فيها المسؤول الحزبي، أخذت الابنتان بدفعه إلى الباب:

- اذهب، ادخل بسرعة، وقل إنك أب، وقل إن أمه مريضة، وقل إنه لم يفكر، وإنه لا يزال شاباً صغيراً، واتخذ موقفاً خاطئاً، واطلب أن يعيدوه من القطار، اشرح له كل شيء كما هو.

- اذهب يا أبي، فماذا تنتظر! فكل دقيقة مهمة!

خجل تشوردون، وأحس بالعار أمام الناس، بغض النظر عن أنه لم يوجه له أحد كلمة واحدة، أو تنبيه، وكان الناس محاربين أو من عامة الشعب، كل يريد حل مسائله، وليس لأحد شأن بآخر.

- لم أتعود أن أتصرف هكذا، لن أذهب، - رفض تشوردون رفضاً باتاً.

- لا، بل ستذهب! - قالت إحداهن.

- وإذا لم تذهب، فنحن سندخل! ونحصل على موافقة بإرجاعه، - قالت الأخرى بعد أن فقدت كل منهما الصبر، واندفعت الابنتان نحو باب غرفة المدير.

- لا، لا تذهبا، ليس الأمر لكما. - وأمسك الأب بيدي ابنتيه وقادهما إلى المخرج.

أخذ يسحبهما بكل قوته، ومن جديد عبر جماهير الناس إلى الأسفل عبر درجات السلم، وعند ذلك سمع منهما، ما لا يسمعه أب من أولاده إلا نادراً:

- أنت تدفع بابنك إلى الموت! - قالت إحداهن.

- لعنك الله، أنت ليس بأب لنا! - قالت الثانية.

- نعم، أنت ليس بأب لنا! - أكدت الأخرى على ما قالت أختها.

شحب وذبل، واضمحل تشوردون دفعة واحدة، وفك قبضتي يديه عن يدي ابنتيه، حيث كان يتمسك بهما، وتركهما وشأنهما، واستدار صامتاً، وأخذ يركض إلى الساحة، وهو يدفع الناس بكلتا يديه يمنة ويسرة، أسرع حتى يودع ابنه، وهو يحاور ويلف من بين الناس كمن يركض في غابة كثيفة الأشجار. فيا لكثرة الناس في هذا اليوم، ورغم كل ذلك اخترق تشوردون لجان التنظيم، ولم يعر اهتماماً للصراخ بالتوقف، وتابع نحو الرصيف، الذي سيصعد منه المتطوعون إلى عربات القطار، ولكن الطريق إلى هناك، كان مسدوداً، وهناك على رصيف الصعود إلى القطار، سار رتل من الشبان الذين يرتدون الثياب السود، وكانت الموسيقا العسكرية تعزف سمفونية الوداع الحربي، وهناك لم يكن مكان حتى يضع الإنسان قدمه، فكيف لتشوردون أن يجد ممراً!

حوصر الوالد الذي لم يعد له لا حول ولا قوة إلى جانب الشريط الفاصل، ينظر إلى أعلى هذا البحر من رؤوس الشبان، وإلى عربات القطار الحمر، الذي امتد بعيداً بطوله.

فصرخ تشوردون وهو يرفع يديه، ويمد جسمه عالياً.

- سلطان، سلطان، أين أنت يا بني، هذا أنا هنا! اتسمعني؟!

- ولكن من أين لسلطان أن يسمع صوت أبيه بين كل هذه الجحافل من البشر، ولكن ثمة عاملاً في السكك الحديدية، عطف على الرجل الكهل الذي يصرخ كالديك المذبوح، واقترب منه وسأله:

- هل يوجد معك حصان؟

- نعم، يوجد، - أجاب تشوردون.

- وهل تعرف أين محطة الفرز؟

- أعرف، إلى تلك الجهة.

- هكذا، إذن، عليك أيها الأب، أن تجلس على حصانك، وتنطلق على الفور إلى هناك، وبالتأكيد ستلحق به، فالمسافة لا تزيد عن خمسة كيلومترات، فالقطار سيتوقف هناك لدقيقة، وعندها ستودع ابنك، فاسرع على الفور، لا تقف هنا بلا جدوى!

أخذ تشوردون يركض بسرعة عبر الساحة، حتى وجد حصانه، فركب عليه بسرعة، وشد مقوده، ووضع رجليه في الركابين، وانطلق منحنياً على رقبة حصانه كفارس قديم، يحث حصانه من كلا الجانبين بكعبي رجليه، في الشارع بمحاذاة السكك الحديدية، ثم عبر الشارع الخالي للتنزه، وكان الناس الذين يمرون في الشارع يخافون من القادمين والمغادرين من القرى، ولاسيما إذا كان هؤلاء مسرعين على ظهور خيولهم. وهو يدمدم بنفسه: «عسى أن ألحق به! عسى ألا أتأخر! حبذا لو لحقت به!».

أخذ يكرر تشوردون صلاة ودعوات الخيال المسرع. «ساعديني، يا أرواح الأجداد! أرجو أن تساعدني يا حامي الخيل كامبارآتا! عسى ألا يتعثر حصاني! أعطه أمتن وأقوى جناحين يمتلكهما الصقر! أعطي حصاني القلب الحديدي! أعطه قوائم الضباء، أعطه رئتي السمك!» قطع الشارع، ثم أخذ يركض خبباً إلى جانب السكك الحديدية، وهكذا حتى وصل تشوردون إلى محطة الفرز والتوزيع، ولم يبق إلا القليل حتى يصل، كان صوت القطار قد أتى من خلفه، وكان هذا الضجيج يشعره بحرارة المطاردة له، أو كالجلاميد الهابطة من أعالي الجبال، وكأنها تريد أن تسقط فوق كتفيه. لحق القطار بالخيال تشوردون، وكان الحصان يشخر وينخر تعباً، ولكن الوالد المجرب والخبير، حسب المسافة بدقة، وهو يأمل

شيئاً وحيداً، أن يتوقف القطار لدقائق، وإلى محطة الفرز لم يبق إلا خطوات، والخوف الوحيد، أن لا يتوقف القطار! وهنا تذكر تشوردون الله، واستعان به: «يا الله العظيم، إذا كنت موجوداً حقاً في الأرض، أرجوك أن توقف القطار! أرجوك أن توقف، أن توقف القطار، أرجوك أن تمسكه!».

عندما وصل تشوردون، كان القطار يقف في محطة الفرز، فأخذ يركض خبباً إلى جانب القطار. كان ابنه يركض إلى جانب عربات القطار - للقاء أبيه من الجهة الأخرى، وعندما رآه تشوردون، قفز من فوق الحصان، وتعانقا صامتين، وهما يضمان بعضهما، وجمدا ناسين كل شيء في الكون، فقال الابن سلطان:

- سامحني يا أبي، سامحني، فأنا ذاهب كفدائي متطوع.

- أعرف يا بني.

- فأنا قد أثرت حنق أختيّ عليَّ يا أبي؛ وعسى أن تسامحاني إذا تمكنتا من ذلك. تمالك الأب أعصابه وقال لابنه:

- إنهما طلبتا مني أن أعيدك، فلا تزعل منهما، ولا تنساهما، اكتب لهما دائماً، أتسمعني جيداً؟ ولا تنسَ أمك.

- حسناً يا أبي.

دق الجرس في المحطة، وكان من الضروري أن يفترقا. نظر الأب لبرهة في وجه ابنه، ولآخر مرة، وشاهد في وجهه ملامحه الخاصة. نعم لقد تذكر نفسه عندما كان بعمره في فجر شبابه؛ فضمه بقوة إلى صدره، وفي هذه اللحظة أراد أن يعطيه كل ما لديه في روحه وقلبه من طاقة، وقوة شخصية، وأن يمنحه كل ما لديه من قوة كاريزما، باسم الحب الأبوي، وأخيراً، قبّله قبلة طويلة، وأخذ يكرر ما كان يقوله سابقاً:

- كـن إنسـاناً يـا بـني! حيثمـا كنـت، وحيثمـا سـتكون، كـن إنساناً! عليك أن تبقى إنساناً إلى الأبد!

تحركت المقطورات.

- إننا نتحرك يا تشوردونوف! - صرخ له القائد.

وعنـدما مـد رفـاق سـلطان لـه أيـديهم، ونزعـوه مـن غمـرة أبيـه، وشـدوه إلى العربـة، أخفـض تشـوردون يديـه، ثـم اسـتدار وانحنـى علـى رقبة الحصان الدافئ، بكـى، وبكـى، وذرف الـدموع وهـو يضـم رقبـة الحصان، حتى أخذ الحصـان يرتجـف، إذ أحس بعظـم مأسـاة فارسـه، وأخذ ينقل حوافره من مكان إلى مكان تحت وقع ثقل المأساة.

مـر عمـال السـكك الحديدية مـن جانبـه، وكـانوا يعرفـون لمـاذا النـاس يبكـون في هـذه الأيـام، وفقـط هـم الشـباب الـذين يعملـون في المحطة، أخذوا ينظرون بفضول، ويقفون مستطلعين، لماذا يبكـي هـذا الرجـل الكهـل، وتحسسـوا المصيبة في وجهه فتعـاطفوا معـه كإنسـان كهل ويذرف الدموع.

ارتفعـت الشـمس فـوق الجبـال علـى ارتفـاع بقـدر طـول حـورتين، وعندما مر تشوردون من المضيق الأصغر، وخرج إلى الفضاء الفسـيح في الـوادي ذي الـتلال والهضـاب، والـذاهب إلى الجبـال المكللـة بـالثلوج، هنـاك، انقـبض مجـرى تـنفس تشـوردون، وكـأنـه يختنـق: فعلـى هـذه الأرض، كان يعيش ابنه...

صدر للمؤلف والمترجم
الدكتور ماجد علاء الدين

1. ترجمة إلى اللغة الروسية عن العربية:

أ. «عائد إلى حيفا» رواية من تأليف غسان كنفاني، موسكو 1974. وأعيدت طباعتها مرتين وصدرت على حلقات في مجلة «آسيا وأفريقيا اليوم» بمئات ألاف النسخ.

ب. مجموعة دراسات ومقالات عن الأدب العربي منشورة في المجلات والصحف الروسية بين أعوام 1973-1980.

2. ترجمة إلى العربية عن الروسية في مجالات السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع:

أ. «أكتوبر وحركة التحرر الوطني»، مجموعة باحثين، دار ناؤوكا، موسكو 1975.

ب. «كمب ديفيد سياسة مصيرها الفشل»، تأليف أ. زاخاروف - أ. فومين، دمشق ط1 1984- ط2 1985.

ج. «البلدان النامية والعلاقات الاقتصادية الخارجية»، تأليف بورتيانيكوف، دمشق 1985.

د. «الأخوة كينيدي»، تأليف أ. غروميكو، دمشق 1986.

هـ. «مذكرات عن الانقلاب العسكري الأسباب والنتائج»، ميخائيل غورباتشوف، دمشق 1992.

و. «القتلة على الرمال البيضاء»، أناتولي آغارشيف، دمشق 2000.

ز. «ستالينغراد ملحمة العصر»، ف. تشويكوف، دمشق 1995.

3. روايات وقصص قصيرة:

أ. «النطع» رواية من تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 1984.

ب. «الأقصوصة السوفييتية المعاصرة»، دراسة وقصص مختارة، دمشق ط1 1983، ط2 1984، ط3 1985.

ج. «محاكمة سقراط»، تأليف يوري فانكين، دمشق 2002.

د. «أحلام إيفان المأساوية»، رواية من تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق 2002.

هـ. «بؤس الشيطان»، بريم ستوكر، ترجمة مشتركة مع نايف أبو كرم، دمشق 2002.

و. «الواقعية في الأدبين الروسي والعربي»، دراسة ادبية من تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق ط1 1984، ط2 2015.

ز. «الأرض الأم» - تأليف جنكيز أيتماتوف - ترجمة إلى العربية - دمشق - ط1 2016.

ح. «السفينة البيضاء» - تأليف جنكيز أيتماتوف - ترجمة إلى العربية - دمشق - ط1 2016.

ط. «جميلة، عين الجمل ، وجه لوجه»، - تأليف جنكيز أيتماتوف - ترجمة إلى العربية - دمشق - ط1 2016.

ي. «حورتي في منديل أحمر» - تأليف جنكيز أيتماتوف - ترجمة إلى العربية - دمشق - ط1 2016.

ك. «المعلم الأول ، الجندي الصغير ، لقاء مع الابن» - تأليف جنكيز أيتماتوف - ترجمة إلى العربية - دمشق - ط1 2018.

ل. «وداعاً يا غولساري» - تأليف جنكيز أيتماتوف - ترجمة إلى العربية - دمشق - ط1 2018

4. شعر مترجم وقصص مختارة عن الروسية إلى العربية:

أ. «مختارات من الشعر الروسي» (دراسات وقصائد مختارة)، دمشق 1984.

ب. «المرآة والقرد» شعر قصصي للأطفال، أ. كريلوف، دمشق 1985.

ج. «الوقواق والديك» شعر قصص للأطفال، أ. كريلوف، دمشق 1985.

د. «الذئب والثعلب»، شعر قصص للأطفال، أ. كريلوف، دمشق 1985.

هـ. «تيمور وفريقة»، قصة للناشئة، أ. غايدار، دمشق 1986.

و. «ملحمة الزمن» ديوان شعري، أناتولي سافرونوف، دمشق 1986.

ح. «رموز مقدسة»، مجموعة شعرية، تأليف ن. ريريخ، دمشق 1993.

ط. «الضفدعة السائحة»، غارشين، دار التقدم، موسكو 1974.

ي. «مغامرات بوراتينو»، تأليف: ألكسي تولستوي، دمشق 1984.

5. ثقافة عامة:

أ. «صفحات مجهولة من حياة تولستوي»، ترجمة إلى العربية، دمشق 1986.

ب. «قصص من حياة دوستويفسكي»، ترجمة إلى العربية، دمشق 1985.

ج. «ذكراه في القلب والدة رائد الفضاء الأول تروي قصته»، آنا غاغارين، ترجمة إلى العربية، دمشق 1987.

د. «دليل السائح الروسي»، تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق 1992.

هـ. «الأجسام الطائرة المجهولة»، أ. كوزوفكين، ترجمة إلى العربية، دمشق 1994.

و. «سويداء سورية (موسوعة شاملة عن جبل العرب)»، مشاركة مع مجموعة من المؤلفين، دمشق 1995.

6. قيد الطباعة:

أ. «بناة الأهرامات ما زالوا شباباً» - رواية.

ب. مئة مفكر عظيم.

ج. دراسات في النقد الأدبي وعلم اللغة الروسية وآدابها.

د. سيرة حياة عامة...